إلهامات قرآنيـة

يقدمها
جمال البنا

المحتويات

Z

D

في مطلع عام 2009م طلبت جريدة «المصري اليوم» من الأستاذ جمال البنا أن يكتب عمودًا يوميًا بدءً من اليوم الأول من شهر رمضان 1430هـ ــ أغسطس/سبتمبر 2009م، وقد قام بذلك تحت عنوان «إلهامات قرآنية» وتكرر عامي 2010 و2011.

وظفرت « الإلهامات» بإعجاب القراء، ورأى بعضهم طريقة جديدة للتعامل مع القرآن الكريم بعيدة عن طريقة التفسير المعهودة وكذلك عن الدراسات الحديثة التي تتناول جوانب من القرآن في دراسة طويلة موثقة.

ولما كانت دار الفكر الإسلامي حريصة على طبع ونشر كل ما كتبه الأستاذ جمال البنا، فإنه ليسرنا أن نقدم «الإلهامات» إلى القراء.

وعلى الله قصد السبيل،،،

القاهرة في **محرم 1433هـ**
يناير 2012م

المجموعة الأولى

إلهامات قرآنيـة

نشرت بجريدة «المصري اليوم»

رمضان سنة 0341 هـ

أغسطس/سبتمبر سنة 002 م

[1]
«أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»(*)

إذا ذكر رمضان تبادر إلى أذهان الناس أنه شهر «الصيام» لأنه فيما تصوروا أن هذا هو أبرز ما في هذا الشهر، وما يميزه عن غيره من الشهور، فالناس ابتداء من فجره يمتنعون عن الطعام والشراب والمخالطة الجنسية، ويفطرون عند الغروب فيما يشبه «الزفة»، ويتلو ذلك ما ابتدعوه من مسلسلات وأفلام تجهد الإذاعة والتليفزيون نفسها قبل الشهر «الفضيل» بستة أشهر تقريبًا في الإعداد له وتحشد كل امكانياتها.

كلا.. أيها السادة.. إن رمضان هو شهر «القرآن»، لقد قالها القرآن نفسه :

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» (البقرة : 185).

ونفهم من سياق الآية أننا إنما نصوم رمضان لأن فيه نزل القرآن، وهذا هو سبب تمييزه عن الشهور قاطبة سواء في الإسلام أو غير الإسلام، فالصيام موجود في كل الأديان، وله أشهره وأوقاته، ولكن رمضان وحده هو الذي أنزل فيه القرآن، ومن ثم أراد الله منا صيامه، فكأن الصيام احتفال وتقدير للقران، وشهر رمضان هو شهر القرآن خاصة، وكل شيء فيه يجب أن يكون للقران، وما نسلكه اليوم من حشد المسلسلات والأفلام والأغاني التي تملأ اليوم كله نهاره وليله ولا تدع لغيره وقتا أو مجالاً هو النقيض فقد أراد الله أن نقضي هذا الشهر في تدبر القران.

والقرآن هو الأساس الأصيل للإسلام، وإذا كان للرسول من دور كبير وهام فهو أنه حمله وبلغه للناس، وإذا كان له حق على الناس فذلك لأن القرآن قد نص على ذلك وحدده، فالأمر كله إلى القران، ومن يلتمس الهداية في غيره يضله الله، وأول من يقرر ذلك هو الرسول نفسه، فقد قال : «الحلال ما أحله الله في كتابه، والحرام ما حرمه الله في كتابه»، وقال : «لا يأخذن عليَّ أحد بشيء فإني لا أحلل إلا ما أحله القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن»، واعتبر أن الخوض في الأحاديث فتنة، وأن المخرج منها هو «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفيصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

وقد «عشنا» و«شفنا» أناسًا يتهمون بأنهم «قرآنيون».. فهل يعقل هذا ؟ هل يتهم أحد بأنه «قرآني»، وهذا هو فخر كل مسلم، فإذا كانوا يريدون أن يقولوا إن هؤلاء ينكرون «السُنة» فإن التعبير الذي اصطنعوه لا يقدم اتهامًا، بل يقلدهم فخارًا، وكان يجب أن يقولوا منكري السُنة، على أن هؤلاء لا ينكرون السُنة التي لابد وأن تكون بحكم تكوينها اللغوي عملية، وإنما هم ينكرون الأحاديث، أما السُنة العملية التي نقلنا عنها أداء الصلاة وإيتاء الزكاة ومناسك الحج فهم لا ينكرونها، فالوصف الصحيح لمن يقولون عنهم منكري السُنة هو أنهم منكروا الأحاديث.

ومعظم الناس يتصورون أنهم لا يفهمون القرآن إلا إذا رجعوا إلى التفاسير المعتمدة كالطبري وابن كثير والقرطبي حتى سيد قطب، فحذار.. ثم حذار لا تشرك بالقران أحدًا، ولا تبتغي بينك وبينه ترجمانا، فقد قال الله «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، فإذا أردت القران هداية ونورًا وشفاء قلب، وسكينة نفس، فسيعطيك القرآن كل هذا، أما إذا أردت «المعلومة» فستأتيك التفاسير بالوف منها، وهي تمثل اجتهادات وفهم المفسرين، ولكنها ليست بالضرورة هي القران، ولكنها تضل وتشتت وتميع بدلاً من أن تهدي وتلهم، إن عليك أن تقرأ القران فما فهمته ورضيته فخذ به، وما جهلته فدعه إلى خالقه، فإنك لست مأمورًا بأن تعرف كل كلمة جاءت في القران، وقد تحير عمر بن الخطاب حينا في لفظة «وَأَبًّا»، فقال هذه الفاكهة عرفناها، فما هو الـ «الأبّ» ثم عادت إليه سكينته وقال «هذا والله هو التكلف»، وما يضيره أن يجهل «الأبّ»، وما يقدمه أو يؤخره التعرف عليه أو الجهل به.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1896)، بتاريخ 22/8/2009م.

[2]

«يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ»(*)

الإيمان بالغيب أبرز خصائص الإيمان الديني، وهو الفاصل ما بين مجتمعات تؤمن به، وبالتالي تؤمن بالأديان، ومجتمعات تنكره، ولا تصدق إلا ما يكون موجودًا أو ملموسًا فتكفر بالأديان وتؤمن «بالطبيعة».

ورأس الغيب هو الإيمان بالله تعالى، وبأنه خالق هذا الكون ومدبره من أصغر ناموسة حتى أكبر مجرة، وقد صور القرآن الكريم الله تصويرًا بقدر ما يستوعبه العقل وبرهن عليه بدليل الخلق في أربع كلمات «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الخَالِقُونَ».

ويتبع الإيمان بالله، الإيمان بكتبه ورسله الذين يمثلون طريق هداية الإنسان في الحياة، وكذلك الإيمان بالدار الآخرة وبالثواب والعقاب في جنة أو نار.

والإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر يمثل «العقيدة» في الدين وهي جوهرته وناظمة عقده.

والإيمان بالغيب يوجب «الضمير».

ذلك لأن الأديان تأمر بالخير وتنهى عن الشر، ولكنها لا تملك في الحياة الدنيا عقابًا تفرضه على الشر ولا ثوابًا على الخير، ولكنها ترجئ هذا كله إلى يوم القيامة أي بعد الموت.

أي إنه لن يكسب في حياته إذا أحسن، ويمكن أن لا يعاقب إذا أساء.

فإذا لم يؤمن بالآخرة، وإذا لم يكن هناك ثواب ولا عقاب فما الذي يحول بينه وبين الانحراف واتباع هوى النفس؟

الذي يحول بينه وبين ذلك العقل الذي يهديه إلى حُسن الحَسَن وقُبح القبيح، وإلى أن هناك خير وهناك شر.

ولكن ملكات العقل تتفاوت، وعامة الناس قد لا تكون ملكاتها قادرة على صد هوى النفس وإغراء الشهوة.

وهناك القانون الذي تسنه الدولة، ولكن القانون وإن كان يعاقب المسيئ، فإنه لا يثيب المحسن، فضلاً عن أن الدولة لا يمكن أن تخصص لكل مواطن رقيبًا يتابع تصرفاته حتى يلقي عليه القبض «متلبسًا بالجريمة».

وإنما الذي يصلح هذا كله هو الضمير.

والضمير معناه أن يرتدع الإنسان عن الشر، وأن يندفع للخير دون خوف عقوبة عاجلة أو كسب سريع في الحياة الدنيا، وإيماناً واحتسابًا بالله.

وهذا ما تقدمه الأديان بالدرجة الأولى.

على أنها لعلمها بالنفس البشرية وضعفها من ناحية، ولرغبتها في إقامة العدالة الكاملة جعلت لها يومًا آخرًا بعد النشر من القبور، وبعث الناس ونصب الموازين التي تقرر العقوبة على المعتدين والثواب للمحسنين.

وقد كانت الديانة المصرية القديمة هي أعرق الديانات قبل الإسلام في إبراز «اليوم الآخر»، وأكدت الثواب والعقاب والميزان الذي يزن «بالشعرة»، ومن هنا أطلق عليها المؤرخ الأمريكي بريستد «فجر الضمير».

ويتجلى أثر الإسلام في إشاعة وتعميق الضمير في إشاعة وتعميق فكرة الحرام والحلال.

ولكن الغيب يثير «إشكالات».

منها أنه لما كان غيبًا، فإن الله وحده هو الذي يعلمه، ولا يعلمه آخر حتى لو كان نبيًا رسولاً، وهذا يقتضي أن لا نسلم بشيء من الغيب إلا إذا نص عليه في القرآن الكريم وحده، ولا يجوز في هذا الصدد إقحام كلام المفسرين لأنه بالضرورة إنما هو كلامهم، وليس كلام القرآن ولا أن نقحم أحاديث المحدثين لأننا لا يمكن أن نحكم ظني الثبوت في قطعي القرآن.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1897)، بتاريخ 23/8/2009م.

[3]
«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ»(*)

في آية رائعة من آيات سورة البقرة يعلمنا القرآن درسًا عميقاً من أسرار الإيمان فيقول : «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ» (البقرة : 177).

الذي فهمته من الآية، وأنا هنا لا أقدم تفسيرًا للقرآن، ولا أقول أن هذا هو ما أراده القرآن على سبيل القطع، إنما أقول إن هذا هو ما فهمته، وقد يكون خطأ، وأكون أنا المسئول عليه، أما القرآن فلا يمكن أن ينسب إليه أي كلام.

أقول إن الذي عبر عنه القرآن بأن «تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»، إنما رمز به «للشكل» ويريد أن يقول لنا إنه ليس هذا هو الإلهام، إن الإلهام هو ما أشارت إليه الآية من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وأن يصدق هذا الإيمان بالإنفاق على «ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ» (أي الأرقاء والعبيد).

ثم أضاف إلى ذلك أن يقيموا الصلاة وأن يؤتوا الزكاة «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ».

أمامنا إذن قائمة من الفضائل هي التي تمثل «البر»، وأنها تقوم على إيمان وعمل، لأن الإيمان لا يمكن التثبت منه إلا بدليل العمل، فما أسهل أن يدعى أحد الناس أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، فإذا كان مع هذا الادعاء لا يفعل الخير، ولا يؤتي الزكاة، ولا يفي بالعهد، ولا يصبر على البأساء، فإن إيمان هذا إيمان مدخول يقوم على الادعاء، ولا يثبت بالعمل.

ويلحظ أن جزءً من هذه الفضائل لا يتسم بصفة دينية مميزة، وإنما هي الفضائل لدى الناس جميعًا في كل الأديان، ومن غير الأديان أيضًا، لأن مفردات التكافل الاجتماعي لا تتوقف على دين، ولا تتغير ما بين دين وآخر، فالإيثار والإنفاق والشجاعة والوفاء بالعهد، كلها فضائل بحكم ذاتها يهدي إليها العقل كما يهدي إليها النقل وتدعو إليها كل النظم «العلمانية» كما تدعو إليها النظم الإيمانية، وأن ما أراده القرآن عندما صدر الآية بأنه «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»، هل يعقل أنهم إذا صفوا الصفوف، واستقبلوا القبلة وأقاموا الصلاة فلا عليهم بعد أن ينافقوا، وأن يكذبوا، وأن تغلب عليهم الأثرة.. إلخ، شتان ما بين الاصطفاف وتولي «القبلة».. من ناحية.. وإساءة الخلق، وغلبة الأنانية.. إن هذه الأخيرة تذهب الأولى، وقد ضرب الرسول المثل بالذي يأتي بصلاة وصيام وحج يوم القيامة وقد ضرب هذا، وشتم هذا، واغتصب مال هذا فيؤخذ من حسناته بما يوازي ما فعل، فإن زادت أعماله السيئة أخذ من سيئات خصومه فطرحت عليه، كما أنه تحدث عن الجسد، فقال : «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وهو القلب».

باختصار.. تريد الآية منا أن نعطي الأهمية الكبرى للب والجوهر وليس للشكل والصورة، وأن نعلم أن أي ترخص في الشكل بحكم الضرورة أو أي ملابسة أخرى لا يفسد العمل متى كان القلب حاضرًا والنية منعقدة، فإذا كان هناك حرص فليكن للخير، والعمل، وليس للشكل أو الصورة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1898)، بتاريخ 24/8/2009م.

[4]
«كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ»(*)

تبرز بعض الكتابات الإسلامية القتـال كما لو كـان أمـرًا محبوبًا ومرغوبًا، يُسعى إليه ويُرحب به، ولكن الآية تصارحنا أن القتال كان «كُرْهٌ لَكُمْ»، والآية هنا تلمس أمرًا طبيعيًـا، إن القتال ليس هو الدأب العادي المألوف للحياة، إن الدأب العـادي هو الحيـاة لا القتـال.. والعيش لا الموت، وكل واحد يدخل معركة يعلم أن من المحتمل أن يمـوت فيها أو يخـرج مبتــور اليد أو مجـروح القــدم، ولم يكن الــذين أنــزل عليهم القــرآن بعيــدين عن هــذه الاحتمالات فهو «كُرْهٌ لَكُمْ».

ولكن الآية تمضي وتوضح «وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَعَسَـى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (البقرة : 216).

إن القرآن هنا يكرر مبدءًا ذكره مرارًا إن الأمور ليست بـالحب أو الكـره أو الأمـاني، وقد نحب أمرًا دون أن يكون الأفضل أو الأمثل، وقد نكـره أمـرًا وفيه الخـير لنـا، فالحيـاة طويلة ومعقدة، ويمكن أن يحدث فيها كل شيء.

فالقتال وإن لم يكن هو الدأب العــام، إلا أنه حقيقة واقعة في المجتمـع، بمعـنى أنه تحدث بين الفينة والفينة، وعندما تحدث فإنها بالطبع يمكن أن تحقق النصر أو الهزيمة.

فلا يمكن لأي مجتمع أن ينفصل عن بقية المجتمعــات، ولو أراد أن ينفصل فلن تقبل المجتمعـات الأخـرى هـذا، فلابد من وجـود علاقـات خارجية قد تكـون ما بين بلد وآخر أو قبيلة وقبيلة ثانية أو دولة ودولة مجـاورة، وهـذه العلاقـات عـادة ما تقـوم على المصـالح، وهذه المصالح متأرجحة وقد تحكمها الضرورة التي تحكمت في العربي حتى جعلته يقــول :

وأحياناً نكر على أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

فضـرورات الحيـاة وتـوازن القـوى تـوجب على المؤمـنين أن يكونـوا أقويـاء حـتى لا يهزموا إذا فوجئوا بهجوم من آخر، ومن ثم فعليهم أن يتزودوا بالسـلاح، وعليهم أن يقفـوا موقف القتـال عندما يتطلب الأمر ذلك.

بــدون ذلك يمكن أن يتعرضــوا لهجــوم ولهزيمة تقضي عليهم أو تـؤخرهم عشــرات السنين.

هناك إذن ضرورات، وضرورات مؤلمة، لابد من التسـليم بها والانصـياع لهـــا، ومن هذه الضرورات «كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ»، والصياغة لا تدعو إلى قتال، ولكنها تؤكد أن القتـال هو مما لا يمكن دفعه في المجتمع البشري لما أشرنا إليه من عوامل.

وهنــاك لفتة هامة هي أن معظم الآيــات الــتي جـاءت عن القتــال إنما جــاءت لأن المؤمنين إنما هم فريق من العرب ترك ديانته الوثنية وآمن بالإسلام وتريد القبائل «فتنة» هؤلاء المؤمـنين عن دينهم، أي ردهم عن دينهم بالقــــوة وإعـادتهم إلى الوثنيــــة، ولكن المؤمـنين يرفضـون، ويكـون عليهم وقتئذ أن يصـدوا القتـال بقتـال، ومن هنا فـإن القتـال المذكور في القرآن هو في حقيقته دفـاع عن حرية العقيـدة حـتى لو اتسم بطـابع الشـدة التي هي جزء من طبيعة الحرب، وهـذا هو السر في أن كثـيرًا من آيـات القتـال تـذكر أن مبررها «حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ لِلَّهِ»، أي لكي لا يفتن أحد من دينـه، وأن يـترك أمر الدين لله تعالى يحكم فيه يوم القيامة، كما تؤكد ذلك آيات أخرى عديدة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1899)، بتاريخ 25/8/2009م.

[5]

«القرآن دستورنا»(*)

قلنا إن رمضان شهر القرآن.

ذكَّــرنا هــذا أن في هــذه البلاد هيئة عريقة جعلت أول جملة في شــعاراتها «القــرآن دســـتورنا»، وهـذه الهيئة ذات الثمـانين عامًا قد تـداعت عليها القـــوى تـداعى الأكلة على قصعتها وهي صـــابرة محتسبة.

وهذا التداعي لم يبدأ من اليوم ولكنه بدأ من سـنة 1952م، وشـهد أسـوأ فصوله عـام 1954م وعام 1964م، وقد اشتدت الوطأة عليها أخيرًا.

أريد أن أقول للإخوان أليس في هذا ما يدعوكم إلى إعادة التفكير والنظر، لعله يقودكم إلى أن خطأ قد حدث، أو أن ظـروف وضـرورات قد فرضت نفسـها على الهيئة وأدت إلى ما انتهت إليه.

الذي أعلمه يقيناً أن نقطة الإبداع التي جـاء بها الإمـام الشـهيد حسن البنـا، ونـذر حياته كلها لتحقيقها هي أن يكون «الإسلام منهج حياة».

وقد أوضح في أكثر من مناسبة أو وثيقة أن الخطة لهذا تبدأ ببناء الفرد الملتزم بالقرآن بحيث يحقق ما أراده القـرآن منه أن يكـون مواطنـا صـالحًا، وأن يعـنى بصـحته فلا يسـمح للإفراط أو الانحراف أن يؤثر عليها، ويعنى بعقله فيعمله، ويقرأ ويتدبر، فإذا أصبح هـذا الفـرد زوجًا كان عليه أن يكون زوجًا صالحًا، وعليه أيضًا أن يتعاون مع زوجته لتكـون زوجة صـالحة، ثم أمًا صالحة، ومن ثم تنشأ الأسرة المسلمة.

وتنفسح الـدائرة من الأسـرة إلى الحي، فليس الحي إلا مجموعة أسـر، ومن الحي إلى المدينة، ومن المدينة إلى القطر حتى تغطي الدولة كلها.

كانت هذه هي الخطة التي أرادها الإمام الشـهيد، والـتي تتفق مع رسـالة الإسلام الـتي هي الهداية، وأن الأنبياء رسل يبلغون الـدعوة، ولكن بعض الملابسـات والتطـورات أوقفت أو انحرفت بالمسار السليم للإخوان.

رجــوت من الإخــوان في كتـابي «ما بعد الإخــوان المسـلمين»، وناشـدت في المقــال الافتتاحي لكتاب «مسئولية الدعوة الإسلامية»، «إخواني الإخوان»، إعادة النظر، فلا يجوز أن لا تستفيد البلاد من إمكانات وطاقات هذه الهيئة الكبيرة، ومن مصلحة الهيئة نفسـها أن تنهي وضعها الشاذ الذي يشلها، بل ويضيعها.

إن وجــود مثل هــذه الهيئة الكبــيرة دون عمل ودون وضع سـليم معــترف به أمر يضر ويسيء إلى جميع الأطراف، فهو يجعل الدولة تخصص إمكانيات ضـخمة لمراقبة وتحييد هـذه الهيئـــــة، وتجميد نشاطها وهو يضعها موضع شاذ غير معقول وغير مقبول.

ولو أنها قــررت أن تعـود إلى الخط الأساسي الـدعوي والـتربوي لخـدمت الأمة أعظم خدمة، ولحققت الخط الإسـلامي الأصـيل، خط الـدعوة والتربية وبنــــــاء الأفـراد، ولحـررت الدولة من أن تخصص إمكانياتها للترصد لها.. باختصار تستريح ويستريح الجميع.

لقد كان «الحكم» لعنة الدعوة الإسلامية منذ أن قال الخوارج «لا حكم إلا لله»، فقتلـوا عليِّ بن أبي طالب، وأنهوا الخلافة ليقــــوم الملك العضوض، حـتى جمـال الأفغـاني الـذي خدعه الحكـام (خـديوي مصر وشـاه إيـران وخليفة آل عثمـان) بـالوعود المعسـولة ثم نكثـوا ونكلوا به، حـتى السياسة الـتي ابتلى فيها محمد عبـده، فخـرج منها يقـول لعن الله السياسة وكل ما جاء من ساس ويسوس.

كان أبو بكر ــ وهو من هو ــ يستعيذ من غمرات الدنيا ويسأل الله السلامة منها.

وهل السياسة إلا غمرات الدنيا ؟!

فلماذا يضع الإخوان المسلمون أنفسهم فيها، وقد أعفاهم الله، فليتركوها.

ولنقل فيها ما قال الرسول عن العصبية : «دعوها.. فإنها منتنة».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1900)، بتاريخ 26/8/2009م.

[6]
«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ»(*)

هذا جزء من آية تقول «وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» (البقرة : 251).

هذه الآية تضع أساس قانون اجتماعي عظيم أطلق عليه القرآن «التدافع» ومادة الدفـــــع تضم المعـنى الرئيسي دون أن تتعـرض لما تتضـمنه تعبـيرات أخـرى مثل الصدام أو التناقص أو الصراع فتعطي المعنى طابعًا لا يتطلبه، بل يسيء إليه.

المهم.. الانبعـاث بنشـــاط نحو الهـدف، هـذه إحـدى وصـفات القـرآن للمجتمع الناهض.. الحي.. المتحرك والمندفع نحو هدفه.

وقد أعاد القرآن استخدام هذا التعبير في آية ضـرب بها المثـال لهـذا التـدافع هي الآية 40 من سورة الحج «وَلَـوْلا دَفْـعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْـمُ اللَّهِ»، فلـولا أن ينـدفع أنـاس ليحمـــــــوا الكنـائس والصوامع والصلوات لاستطاع آخرون أن يندفعوا إليها ويدمروها.

إن من أكبر سوءات المجتمع ــ كما يرى القرآن ــ الغفلـة، أي أن يُغفــل أفـراده الملكــات الــتي وهبها الله لهم «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِــرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْـمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ» (الأعراف : 179).

فالقرآن يرى أن هؤلاء الغافلين أسوأ من الأنعام، لأن الله تعالى أعطـاهم ملكـات فعالة أغفلوا استخدامها، كأنها لا توجد.

وتعطينا الآية مؤشرًا أن الـدفع المطلـوب هو اسـتخدام هـذه الملكـات اسـتخدامًا رشيدًا لا يمكن أن يحيف على مصلحة آخر، لأن الآيـات الـتي تضـبط المجتمع البشـري عديـدة، وكلها تحقق تكـاملاً، وهو التكامل الـذي لم يفهمه المستشـرقون أو الناقـدون للقـرآن ورأوا أن بعض الآيـات تتنـاقض مع الأخـرى وأنه متضـارب، لأن فكـرة التكامل التي تؤدي إليها الآيات كلها كانت غائبة عنهم، وهذه الآيات تحققه، فهناك آيـات تـوجب القتال عندما يكون القتال دفاعًا عن النفس أو الكرامة أو حرية المعتقد، وهنـاك آيـات توصي المســلم بالرحمة والســماحة ما أمكن إلى ذلك ســبيلاً، أي أن يعمل الإنســان ملكاته كلها لتحقيق الخـير ولاكتسـاب الحسـنات وللنهضة بـالمجتمع، ولكنها لا تتضـمن بالضـرورة تحيفـاً على الحقـوق، وهنـاك آيـات تفـرض التزامًا على الحـواس بحيث لا تتجاوز حدها «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْـئُولاً»، وهنـاك آيـات تحض الإنسـان أن لا ينسى حظه من الحيـاة الـدنيا، وآيـات تمنح الـذين يريـدون حـرث الدنيا ما يريدون، وفي الوقت نفسه فإنه يحض على احتسـاب الآخـرة وابتغـاء رضـوان الله بحيث لا يكون في سلوكه شطط ولا إفراط أو تفريط .

والمســلم القــرآني.. ذلك المســلم الــذي يلتمس الهداية والأدب والســلوك من القرآن يلم بهذا كله ويحاول أن يأخذ نفسه به، ثم هو بعد هـذا كله يعلم أن الله تعـالى رحيم وأن رحمته تسع كل شــيء لأنه يضـاعف الحســــــنة، وأنه يتعامل مع الضـعف البشري بما يطهره ويكفره بإعمـال الحسـنات، وبهـذا يحيا في سـلام ورضا نفسـي، لا يحــزن لما يقع فيه من فشــل، ولا يغــتر بما وصل إليه من نجــاح، يحــاول أن يحقق «القصد»، وبـالطبع فإنه في معظم الحـالات قد لا يحقق هـذا تمامًـا، ولكن يكفيه أن يحــــاول وأن يخلص في محاولته بحيث يحصل على قسط من التوفيق يحـــول دون تخبطه في الضـلال «فَمِنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَـابِقٌ بِـالْخَيْرَاتِ» (فاطر : 32).

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1901)، بتاريخ 27/8/2009م.

[7]

«وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»(*)

هذا جزء من آية وردت عن بعض أحكام المرأة، وهي تقـرر مبدءًا عظيم الأهمية في العلاقة ما بين الرجـال والنسـاء، هـذا المبـدأ هو أن لَهُنَّ مِثْـلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ، أي أن لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبـات، وقد أعطت كلمة «بِالْمَعْرُوفِ» قسـمة هامة يبرزها القرآن عـادة عنـدما يتحـدث عن العلاقـات ما بين الرجل والمـرأة هي أن يكون ذلك «بِالْمَعْرُوفِ»، وتعطي الكلمة مزيجًا من الخـير ومن العـرف، ولم يقل عن الحرام والحلال، إذ توجد درجات ترتفق على الحـرام والحلال من مكـروه أو منــدوب، ولأن العــلاقة بين الرجل والمرأة لها حساسـية خاصـة، وقد أراد الله تعـالى أن تقـترن «بِالْمَعْرُوفِ»، ومن ثم يستبعد الصخب والضغط والإكراه والانتقاص و«الخناق»، فهـذه ليست من المعــروف في شــيء، فالعلاقة ما بين الرجل والمــرأة في الرضا والغضب في الزواج والطلاق يجب أن تتم «بِالْمَعْرُوفِ» .

على أن الآية تقدم إضافة «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، وقد حـارت الأفهـام في هـذه الدرجة، والقرآن ــ على عادته ــ يعطينا المعنى العام وليس القصد المحدد، وليس هذا بـالطبع عجـزًا، فـالقرآن وهو أصل الإعجـاز لا يمكن أن يقربه عجـز، وإنما هي الحكمة الإلهية الــتي تســمح للفكر الإنســاني أن يعمل قــواه في فهمها في ضــوء الأوضــاع المختلفة والمتفاوتة، وقد غفل الناس أن القرآن قد نزل من ألف وأربعمائة ســنة، وما يقرره لم يأت ليعطل ما وضعه الله تعالى من سنن يسير عليها المجتمع، ولكن ليـدعم هـذه السُــنن الـتي فيها حرية الفكر والتسـليم بـالتطور وما يعنيه هـذا من اختلاف في الأفهام.. إلخ، لهذا اكتفى بأن يقول إن هناك درجة يفضل بها الرجال النساء، قد تكــون في زمن معين القوة العضلية، قد تكون في مجتمع أوروبي أن المرأة حتى الآن عنـدما تتزوج تحمل اسم زوجها وتنسى اسمها واسم أبيها وتصبح «مسز» أو «مدام» لزوجها، وقد يكون الإنفاق وشواهد الحال تنطق بذلك، لست أرى غضاضة في أن يتمـيز الرجل على المــرأة بدرجة واحــدة، وقد فضل الله تعـالى الأنبيـاء بَعْضَـهُمْ عَلَى بَعْضٍ وفضل المؤمــنين بَعْضَـهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مما يــوحي بــأن التفاضل من ضـرورات المجتمع وأنها عملية تنظيميــة، وواقع المــرأة في أمريكا مثلاً حيث نــالت المــرأة أعظم قسط من الحرية، يوحي بأن الرجال لهم على النساء «دَرَجَةٌ».

والقــرآن واقعي وعملي، وهو لا يحــابي أحــدًا، لا الرجل ولا المــرأة ولكن يحكم بالواقع، كما أن هذا الحكم لا ينفي وجـود اســتثناءات تفــوق فيها المـرأة الرجـل، وقد تكثر هذه الاستثناءات، ولكنها تظل مع هذا استثناءً، علمًا بأن القــرآن اسـتبعد التفاضل ما بين الرجل والمرأة، ولم ينص على فضل للرجل على المرأة، فقال : «وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّـلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَـكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَـالِ نَصِـيبٌ مِمَّا اكْتَسَـبُوا وَلِلنِّسَـاءِ نَصِـيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (النساء : 32).

وأعتقد أن المــرأة لا تــرفض أن يكــون للرجل درجــة، ففي كل عمل يتعـاون فيه اثنــان يفــترض أن يتــوفر لأحــدهما درجة على الآخر ليمكن الانتهــاء إلى قــرار عند الاختــلاف، وبدون ذلك تظل القرارات دون حسم، وفي الـوقت نفسه فـإن النص على أن تتم العملية كلها «بِالْمَعْرُوفِ» تستبعد الاستئثار والتحكم، ولو كانت القضـية تسـوية ما بين ثلاثة لقلنا إن أغلبية الاثنين تفصل في اتخـاذ القـرار، أما عنـدما تكـون التسـوية بين اثنين، فإن «الدَرَجَةٌ» هي التي يمكن أن تفصل عند الاختلاف، وبهذا يصدر القرار.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1902)، بتاريخ 28/8/2009م.

[8]
«وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِـقُوا الْخَيْرَاتِ»(*)

الآية 148 من سورة البقرة التي تقول «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ترسي عددًا من المبادئ والأسس، فعندما يقول «وَلِكُلٍّ وِجْهَـةٌ هُـوَ مُوَلِّيهَا»، فإنها تقرر حرية الاختيار وحرية الإرادة واعتراف القرآن بذلك، وأن هذا من حق كل فـرد فلا يقولن أحد ما هي مؤهلاته حـتى يتخذ وجهة ويوليها ؟ القـرآن لا يسـأل عن المـؤهلات، فهـذه أسـاليب «بورجوازية» تقليدية يعـود أصـلها إلى أن كل واحد له وضع ومسـتوى يجب أن لا يتعـداه، وأن عليه أن يسـأل «أهل الـذكر» ويقلد الأئمة الأعلام، وهـذا ما ترفضه الآية، فهي دعوة صريحة مطلقة للاجتهاد، فلا يقـال إن غـير المؤهل سـيقع في أغلاط، فليكن.. فإنه سـيتعلم من أغلاطـه، وإقدامه على التجربة وثقته في نفسه في حد ذاتها تستحق «الحسنة» حتى لو لم يصادفه التوفيق.

لا تصل أي كلمة إلى ما تصل إليه «لكل» في الاعـتراف بـالفرد ومنحه حريته وإرادته وفتحه الباب على مصراعيه للانطلاق.

وينبني على هذا وجود التعـددية وأنها لا تتنافى مع فكرة «الوحدة» الإسلامية، لأن التعددية إنما تكشف عن بُعد من أبعـاد الوحـدة الإسـلامية لا يمكن أن يعـرف إلا بالتعددية، وقضية مثل الوحدة الإسلامية لابد وأن يكون لها أبعاد عديدة متفاوتة، بل إن القرآن ليس فحسب يتقبل ذلك، بل إنه يأمر به، بل ويعطيه طابع «الاستباق».

وهذا الاستحسان والأمر به يعود إلى أن القرآن يكـره الغـافلين الـذين لا تحـركهم آيات الله في الآفاق، وفي أنفسهم مثارات العجب والدهشة والإعجاب والتفكـير الـذي يدفع للعمل وللانطلاق.

هنـاك إذن اعـتراف بحرية المنطلق للأفـراد، بل هنـاك حث عليهـا، ومهما كـانت اختلافاتكم فإن مصيركم إلى الله الذي يأتي بكم جميعًا.

إن هذه الآيـة يجب أن يضعها كل واحد على صـدره أو يضـعها نـُصب عينيـه، لأنها تمثل الانطلاق، والحرية، والمبادرات الفردية، وأن يتم هـذا كله في صـورة سـباق، وما في السباق من بذل أقصى الجهد للفوز بالأولوية.

وعندما يتحقق هذا فإن الأمة لابد أن تتقدم وأن كل واحد يبذل غاية جهـده، وهـذا هو أكبر فارق بين أمم متقدمة، وأخرى متخلفة تعيش في سبات عميـق، وإذا تحـركت لم تعمل، وإذا عملت لم تـُحسن أو تبذل الجهد.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1903)، بتاريخ 29/8/2009م.

[9]
«آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»[(*)]

في القرآن الكريم آيات محكمات، وفيه أيضًا أُخَـــــرُ مُتَشَابِهَاتٌ، وقد عبر عن هذه الحقيقة، كما حددت الموقف الأمثل إزاءه الآية 7 من سورة آل عمران «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ».

ما هي هذه الآيات المتشابهات ؟ لقد ظن البعض أن القرآن عندما عرض لوقائع الأديان، أو قص قصصًا مثل أصحاب الكهف ويوسف لم يذكر أسماء، ولا أعداد، ولا تاريخًا إلا في القليل النادر، وقد يشير إلى العدد ولكنه لا يذكره صراحة أو يذكره صراحة ويورد عليه ارتفاقات، ظن بعض المفسرين أن هذه تدخل الآيات في باب المتشابه فشمروا عن ساعد الجد ليبينوا كل ما أبهم في القرآن.

ولكن الحقيقة غير ذلك.

نحن نعتقد أن كل الآيات التي جاءت عن ذات الله تعالى وأشارت إلى أقواله، وكل الآيات عن الغيب من جنة أو نار، ثواب وعقاب، هي من المتشابه، لأن اللغة تعجز عن تصوير طبيعة الله تعالى وذاته وكنهه، فاللغة لا تملك إلا عالم الشهادة، أي ما في الوجود المادي لهذه الحياة الدنيا على الكرة الأرضية، أما عالم الغيب فإنها تعجز عنه، وبالذات طبيعة الله تعالى وإشاراته إلى «يَدِ اللَّهِ» أو «عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» أو «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»، «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» .. الخ.

فهذه الآيات تنسب إلى الله تعالى «استواءً وتكليمًا»، ولكن هذه الآيات من المتشابهات لأنه لا يمكن أن نتعرف على شيء من ذات الله إلا بأن يُقدم بشيء يعرفه الناس، وعلى كل حال، فإن البلاغة العربية اقتضت استخدام المجاز عندما يراد تعميق المعنى وترسيخه، فيقولون عن رجل ما إنه بحر في السخاء أو أنه أسد في الشجاعة، وليس هو بحرًا أو أسدًا، ولكنه رجل من لحم ودم، ولكن هذا المجاز يعطي معنى في الكرم أو الشجاعة يجاوز بكثير مجرد كلمة شجاعة وكرم، وقد لجأ القرآن إلى المجاز في كل ما يتعلق بذات الله تعالى، على أن هذا لا يعد تأويلاً أو تحايلاً؛ لأن القرآن الكريم نفسه استخدم تعبير «اليد» بالنسبة للقرآن وبالنسبة للعذاب وللرياح «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» (الأعراف : 57)، وقد تكررت في سورة النمل الآية 63، «إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» (سبأ : 46)، «إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» (الأحقاف : 30)، «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» (سبأ : 31)، «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» (الأحقاف : 30)، ففي كل هذه الآيات لا يمكن أن تشبه اليد التي جاءت فيها «يد» باليد في الإنسان.

وتشير آية آل عمران إلى أن الآيات المتشابهات هي ما يستهدفه الذين في قلوبهم زيغ فيعمدون إليها ابتغاء تأويلها، وهم في الحقيقة يريدون الفتنة، وهذا ما ينطبق على التشدد الوهابي؛ لأنهم يقولون بأن لله تعالى «يدان تليقان بكماله ولا تشبهان أيدي البشر»، فادعوا أن له يدين وهذا هو التجسيم بعينه حتى لو كانتا لا تشبهان أيدي البشر، أما المعتزلة وغيرهم المتفلسفين والمستشرقين فإنهم أرادوا تنزيه الله عن أن يكون له جارحة يتكلم بها وذهبوا إلى أنه لا يتكلم ولا يسمع.. الخ، فنفوا عنه القدرة، ونسى الفريقان أنه لا يعلم تأويله إلا الله.

قال القرآن «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ»، ولو قدر لنا أن نسمع القرآن من شفتي الرسول لأدركنا أنه وقف عند «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ»، لتبدأ جملة جديدة «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»، ولكن العرب عندما كتبوا الآيات في المصحف لم يكونوا يلمون بأدوات الترقيم والتشكيل والنقطة والشولة.. إلخ، ولذلك فإن بعض الناس يجمعون ما بين الله والراسخون في العلم، وهذا فيما نرى خطأ، فالله وحده هو الذي يعلم الغيب.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1904)، بتاريخ 30/8/2009م.

[10]
«لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»(*)

في مجال حرية الاعتقاد، أي شيء أفضل من هذا النص القـاطع الصـريح المطلق «لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ».

مع وجود هـذه الآية لا يتصـور وجـودٍ نص يسـمح بـإكراه أو يضع قيـودًا على حرية العقيدة ؛ لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضًا.

ولا يمكن القول أنها «منسوخة».

فمثل هذا النص الصريح القاطع لا يمكن أن ينسخ.

ولو فرضنا جدلاً أنها منسوخة، فمـاذا تفعلـون في عشـرات الآيـات الـتي تؤكـدها وتقرر حرية العقيدة مثل :

- «وَقُلْ الْحَــقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَــاءَ فَلْيُؤْمِــنْ وَمَنْ شَـاءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف : 29).
- «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (يونس : 99).
- «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» (يونس : 108).
- «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (الكافرون : 1ــ 6).

وقد ذكر الله تعالى الـردة مـرارًا فما رتب عليها عقوبة دنيويـة، وإنما تـرك أمرها لله تعالى يوم القيامة.

- «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة : 127).
- «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ» (آل عمران : 90).
- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً » (النساء : 137).
- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (المائدة : 54).

بعد هـذه الآيـات البينـات، هل يجـرؤ أحد على أن يقـول إن القـرآن لا يقـرر حرية العقيدة، وأنه يجبر الناس على الإيمـان ؟ هل هنـاك من يقـول نأخذ بكلام عكرمة (وهو مــولى ابن عبــاس): «من تــرك دينه فــاقتلوه»، ونــرفض كلام جبريل عن الله رب العالمين.

هذا لا يكون.

ولا جدال في أن هذا حديث مكـذوب؛ لأن الرسـول لم يقتل أحـدًا لمجـرد الـردة، وإنما قتـل من جمع مع ردته قتلاً أو حربًا على المسلمين، وقال هذا ابن تيمية نفسه.

وقد ارتد على عهد الرسول عدد من أصحابه، فما استتبع أحدهم بعقوبة.

فكيف يقول الرسول هذا الحديث الركيك ؟

أليس الأولى أن نقول إنه من وضع الوضاع الصالحين ــ كما أطلق عليهم ــ الذين أرادوا الدفاع عن الدين بغير ما أنـزل اللـه، فظنـوا أن هـذه الموضـوعات تكمل الـدين وتحميه.

والله لا ينصر دينه أو يحميه إلا بما يقرره هو، وليس هم.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1905)، بتاريخ 31/8/2009م.

[11]
«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ»(*)

بأي رحمة من الله.. بأي قدرة وقوة.. وهب الله رسوله تلك الصفة التي ينــدر أن توجد في الرؤساء.. والكبار.. والحكـام وهي صـفة «اللين»، فـاللين صـفة تحمل طابعًا حميميًا، يعيش في الإطار الطـبيعي للأسـرة ويتبـدى ما بين أعضـائها. والعهـــــــد في الرؤسـاء والكبـار أن يحيطـوا أنفسـهم بسـتار من الكبريـاء والتعـالي والأنفـة، وطبيعة القيادة تتطلب تميزًا، ومفردات هذا التمـيز من وجـود الحـرس ومن علو المقعـد، ومن الفخامة في المبنى.. الخ.

وما كان شيء من هذا يمكن أن يوجد، أو يقترب من مكان الرسول ومن مقعده، فكان يجلس على الأرض كبقية العـرب وحوله أصـحابه، كما يجلس الأب وسط أبنائـه، يأتيه الأعـراب الجفـاة، بعضـهم ينـادي بصـوت عـال، فيبتسم ابتسـامة تـذوب أمامها غلظتهم، ويأتي أحدهم فيتبول في المسجد فيقـول «لا ترزمـوه»، وتأتيه الجارية فتأخذ بيده وتسير به في طرق المدينة، فـإذا زارته سـيدة بسط لها رداءه ويقـول إنها كـانت تزورنا أيام خديجة.

وتوضح الآية أنه لو كـان «فَظّـاً غَلِيـظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّـوا مِنْ حَوْلِـكَ»، وانظر إلى الإعجاز في صياغة «فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ» فإنها تعطي أقوى صورة للمعنى.

علاقـات مفعمة بالمحبـة، للمؤمـنين والمؤمنـات قائمة على اللين لعامة النـاس، فسبحان الله الذي مكن لرسـوله هـذا المنهج، والـذي أدبه هـذا الأدب الـذي يعجز عنه أشهر فلاسفة التربية.

وتتوالى الحبات الثمينة للآية «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَـإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

هنا في هـذه الكلمـات المعـدودة يرسم القـرآن أساسًـا لسياسة تعامل القائد مع جمهوره بالطريقة الدينية.. الإنسـانية.. وليست بالطريقة الإدارية أو القيـــادية الجافـة، بدءًا من اللين والعفو، ثم الاستغفار، ثم استشارتهم «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ».

إن تفصيل هذه التوجيهات يحتاج إلى كتـاب لا يقتصر على أنه يعـالج موقف القائد من الجمهور.. الحاكم من المحكومين، وكيف تـُـتجاذب ما بين العفو عنهم، والاسـتغفار لهم، ومشورتهم.. ثم تأتي «القفلة» المحكمة «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

ما هي طبيعة لين الرسول وعفوه واستغفاره ؟ ما هي حـدود ومـدى مشـــورتهم في الأمر ؟ مـاذا تعـني بالضـبط «فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»، إن اسـتيعاب هـذا يتطلب كتابًا، ومع هذا فإن ما نخـرج به من الآية من انطبـاع يظل أفضل من أي شـرح آخر، لأنها تضم فيما تضم كحبات المسبحة «اللين»، والعفو والاسـتغفار جنبًا إلى جنب العزيمة التي هي الخاتمة، والتي تعتمد في الوقت نفسه على «التوكل على الله».

كل هذا في سطور معدودة، وهذا هو القرآن..

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1906)، بتاريخ 1/9/2009م.

[12]

«وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ»(*)

أشك في أن المسلمين يقرأون القرآن، بل أقطع أن كبارهم على الأقل لا يقرءونه.. ولو كانوا يقرءونه لقرأوا بالطبع آيات عديدة قارعة تندد بالتنازع، وتدين التفرق، وتوضح للمسلمين أن التنازع والتفرق هو السبيل للفشل؛ ولأن تذهب ريحهم، فلا تحرك ساكناً.

إنها لمفارقة مذهلة أن نجد أن المسلمين الذين أكد كتابهم على الوحدة والاتفاق والألفة والتعاون هم ــ على وجه التحديد ــ أشد سكان العالم اختلافاً وتنازعًا، رغم أن هذا التنازع قد جمد كل صور العمل والبناء التي كانت قائمة، وأوجد حربًا أهلية، لا غالب ولا مغلوب فيها ولكنها تستمر وتستعر وتأكل بعضها بعضًا، والجميع مغلوبون فيها.

خلافات وحروب في الصومال البعيدة عن مجالات التوتر العالمي والتي كان يمكن أن تكون من أسعد الدول فهي تشرف على مصايد أسماك غنية، ولديها أكبر عدد من قطعان الماشية، وأرضها خصبة ترويها السماء، وكل شيء فيها يجعل شعبها وديعًا.. سعيدًا.. متفقاً مع غيره.

واليمن التي لديها عشرات الأنواع من الأعناب، والتي نجد فيها الجبال والسهول، وتشرف على البحار، وبعيدة كل البعد عن مناطق التوتر العالمية، ما الذي دهاها حتى انشق جزء كبير من أهلها على سلطتها، وجعل سلطتها تحاربها كما لو كانت عدوًا جاء يحاربها من الخارج.

والسودان الواسع الفسيح الذي يشقه النيل وتترامى على ضفتيه الأراضي الخصبة ويتسع لأضعاف سكانه، لماذا يحارب جنوبه شماله مع أن المصلحة واحدة، فالجنوب يختنق دون الشمال والشمال يفقد امتداده دون الجنوب، وكيف تصل دارفور إلى ما وصلت إليه بعد أن فشلت كل جهود الصلح ووساطة الوسطاء.

في الصومال، واليمن والسودان بعد أن أدت الحروب لهجرة الناس من البيوت وأماكن القتال، أصبحوا لاجئين يبيتون في خيام وكانوا ينامون في بيوت ويأكلون من معلبات المعونات التي تصلهم بعد أن كانوا يأكلون من أرضهم ومن طبخهم، في كل هذه الحالات تسمع صيحات هيئات الإغاثة تستغيث بالعالم لمزيد من المعونة بعد أن كادت مواردها تنفذ مع أن هنا الملايين من الجوعى والمشردين ونشاهد صور السيدات الشقراوات يقدمن المعونات بيد يمتزج فيها الرثاء بالاحتقار لهؤلاء الناس الذين لا يعرفون كيف يديرون أمورهم.

وأعجب نزاع، وأكثره أسى ومأساوية هو ما بين فتح وحماس هذا النزاع الذي فشلت على صخوره وساطات مصر المتكررة للجمع بين الأخوين المتمردين، كلها تفشل إما للعناد والمصالح الذاتية، وإما لتدخل دول تكسب من هذا الصراع، ولو عقل الفريقان لعلما أنهما يضيعان فرصة ذهبية ويجنيان على شعب فلسطين، لأن العالم يضغط على إسرائيل لنقل المستوطنات وللدخول في مفاوضات، وإسرائيل تتذرع بهذا الصراع لتتجنب المفاوضات ولتستمر في غرس المستوطنات.

فكل هذا وهم يؤمنون بكتاب يقول :

«وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ»

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1907)، بتاريخ 2/9/2009م.

[13]
«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ»(*)

الآيات التي تـبين مهمة الرسـول وصـلاحياته ومـدى سـلطته عديـدة في القـرآن، وتكاد تكون مكررة، وهذه الكثـرة، وهذا التكرار مغـزاه أن الموضوع لـه أهمية خاصـة، وأن هنـاك احتمـالات للتجـاوز، أو إسـاءة الفهم، فاقتضى الأمر من القـرآن أن يبين، ويوضح، ويحدد، وأن لا يكتفي بذكر ذلك مرة أو مرتين، ولكن مرارًا وتكرارًا حتى لا يبقى ظلاً لشك أو وجودًا لشبهة، فالرسول ــ رسول ــ ومهمة الرسـول هي التبليـغ، وما قد يتطلبه هذا التبليغ من إيضاح حتى لا يخطئ أحد في الفهم أو يسبق إلى فكـرة، معنى لا يريده القرآن، وهكذا فالقرآن يذكر لنا :

- «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» (المائدة : 99).
- «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ» (الغاشية : 21ـ22).

وآيات أخرى عديدة لا يتسع لها المقام.

ما هو سر هذا الإلحاح من القرآن على هذا المعنى وتكراره وتأكيده ؟

السر إن الداعية، بحكم كونه داعية يود لو أن الناس جميعًا آمنـوا بدعوتـه، وبقـدر إيمانهم بقدر ما يتملكه الرضا، فإذا انصرفوا عنه تملكه الحزن، وقد يدفعه حرصه على هداية الناس إلى وسائل وأساليب تمثل إغراءًا أو ضـغطاً، أو قد يقبل تنـازلاً أو ترخصًـا حتى يكسب أكبر عدد، وواضح بـالطبع أنه لا يريد إلا الخـير، وأي خـير أفضل من هداية أكبر عدد ممكن من الناس.

القرآن الكريم يخترق أعماق النفوس ويستبعد بكل قوة مثل هذه الأحاسيس لأنها تخرج عن دوره، فدوره إنه رسـول يبلغ، يبشر، وينذر، ولكن لا يتعدى هذا أبدًا ولا يؤثر عليه سلوك الناس تجاهه، وإقبالهم عليه، أو انصرافهم عنه.

ولا جـدال أن الداعية يكـاد يكـون مفطـورًا على الرغبة في تحقيق الهدايـة، ولكن القـرآن يعلم أن تحقيق الهداية له شـروط ومقتضـيات وتكتنفه عوامل وأوضـاع.. الخ، فضـلاً عن أن الإنسـان لا يخضع لمقتضـيات العقل قـدر ما يستسـلم لنـوازع العواطف وعلاج هذا كله يخرج عن إطار تبليغ الرسالة ويقذف به في غمرات الدنيا.

إذن كيف يكون الموقف إذا رفضوا دعوته ؟

إن القرآن يؤكد للرسول «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَـلاغُ»، «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ»، «وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى»، «فَاصْـدَعْ بِمَا تُـؤْمَرُ وَأَعْـرِضْ عَنْ الْمُشْـرِكِينَ»، «وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ».

ليس للرسول سلطة على الناس، ليس جبارًا، ولا مسيطرًا، ولا حتى وكيلاً، إن هو إلا رسول.

ليس الرسول حاكمًا، ولا جابيًا، ولكنه هادي.

وفي هذا يكمن فخره وتتبلور رسالته ويظل دائمًا حاملاً لرسـالته.. داعيًا إليهـا.. لا يشرك بذلك شيئاً آخر يشغله ويورطه، والأمر بعد ليس أمره، إنه لا يملك الهداية حـتى لأحب الناس إليه «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

الرسـول يـدعو.. والله يهـدي.. وهو أعلم بمن يهتـــــدي ومن تتحكم فيه ظروفه فيأبى.

«وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1908)، بتاريخ 3/9/2009م.

[14]
«مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا»(*)

هـذه الآية تجعل شـعر الإنسـان يقف عنـدما يفكر فيهـا، وهي تقـول : «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُـونَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِـهِ كَثِـيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ» (البقرة : 26).

عندما أفكر أن الله تعالى الذي خلق هـذا الكـون العجيب الـذي لا مثيل لـه، أوجد المجرات الهائلة التي لا حد لها والتي تكون الأرض بالنسـبة لها كحبة رمل من صـحراء أو قطرة من بحر، والذي خلق الحياة والموت، ولا حد لحكمته أو قدرته لا يسـتنكف أن يضرب المثل ببعوضة.

هل يريد الله تعالى أن يعلمنا درسًـا أن لا نتعـالى على أصـغر الحشـرات ؟ بل أن نأخذ منها العبرة ونضرب بها المثل.

هل يريد الله أن يعلمنا أن الإعجـــــاز، والقـــــدرة، والعظمة يمكن أن تتجلى في حشرة، كما تتجلى في المجرات والأكوان العظيمة ؟ إن شـركة بيـونج يمكن أن تصـنع طـائرة تنقل ألف واحـد، ولكن لا يمكن أن تصـنع طـائرة في حجم بعوضـة، فـأين تضع محركاتها ؟ وكيف تخــتزن وقودها ؟ فضــلاً عن أن الحشــرة تتجه وتهتــدي لما يحفظ كيانها في حين أن الأكوان مُسَخرة.

يُفــترض أن يعلم المؤمنــون بــه، فيقولــوا «أَنَّهُ الْحَــقُّ مِنْ رَبِّهِمْ»، أما الجــاهلين فيلجأون إلى المماحكة «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً».. إلخ.

لقد أردت أن أعلم كيف يفهم مفسرونا هذه الآية، فرجعت إلى الطبري وابن كثير فـرأيت روايـات سـاقطة وأوقاويل تافهـة، وكلام لا معـنى لـه، فنحيت المجلـدين في سخط.

الذي يسمع الآية بسمعه، وقلبه، وعقله، سيكتشف بعض إعجازها ثم يأتي التــدبير فتتضح الصـورة، فلا يكـون في حاجة إلى من يفسـرها له لأن تفسـيره لن يتضـمن إلا أقاويل وروايـــات، في حين أن تــدبرها يجعله يحس إعجازها ويتلمس معانيها وتكــون النتيجة أن يعظم الله تعـالى ويسـبح بقدرتـه، ولا يحتقر صـغيرًا ولا يسـتبعده؛ لأن الله تعالى يمكن ــ كما يقول المثل الشـعبي ـــ أن يضع «سـره في أضـعف خلقه»، وتأمل كلمة «سره» فإنها لمست المحك.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1909)، بتاريخ 4/9/2009م.

[15]

«وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ»(*)

في أصحاب كل دين ميل دفين للاستئثار والاستحواز واستبعاد الأديان الأخرى، كأن هذه الأديان ستشاركهم في «فطيرة» الدين.

ولكن الأديان نفسها لا ترى الدين «فطيرة» تكون من حق أصحابها وحدهم أن يأكلوها، ويرفضون أن يشاركهم آخرون، فالدين الحق أفكار وقيم، والأفكار والقيم والمثل لا تنفد، ولا ينقصها كثرة المهتدين بها، وهي تقدم هدايتها للجميع دون أي حساسية.

ومن تطبيقات هذه الفكرة أننا نحصر الأديان في الأديان الثلاثة السماوية «اليهودية، والمسيحية، والإسلام»، وقيل إن الدستور المصري لا يعترف بغيرها.

ولكن هذه الفكرة التي يبدو فيها شيء من الانفتاح تخالف ما ذهب إليه الإسلام ويرى فيها تحديدًا لأمر لم يحدده ؛ لأن القرآن يرى أنه ما من أمة إلا وكان فيها نذير، والآية 164 من سورة النساء «وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»، فأثبت أن هناك رسلاً لم يذكرهم القرآن.

من هم هؤلاء الرسل ؟؟!!

هذا ما لا يمكن أن نقطع به لأن هذا يكون نوعًا من المصادرة على القرآن أو افتئاتًا عليه، ولو أراد الله أن يُعْرَفُوا لعرَّفنا بهم.

الفكرة التي أرادها القرآن هو أن لا يترك أهل كل دين يستسلمون لمشاعر الحرص والاستحواز والتفاخر بالأديان أو التكسب من وراء الدين؛ لأن الله تعالى أرسل رسلاً لا تعرفونهم، فلا تتدعون أن غيركم لم يرسل إليه، وأنكم وحدكم أصحاب الرسالة.

وإذا قال أحد الناس إن «بوذا» أو «كونفشيوس» أو «أفلاطون» رسول، فنحن لا نملك النفي إلا إذا كان في أقوالهم أو أعمالهم ما يخالف ما يفترض أن يتوفر في رسل الله من كمال.

والأفضل لنا أن نضرب عن مثل هذا التنسلؤل، وأن نعكف على أنفسنا أعمالاً لقول الله «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، فإذا كان هو هدى القرآن بالنسبة لمن قطع القرآن بضلاله، فما بالك وليس لدينا ما يقطع بضلال أمثال بوذا وأفلاطون وكونفشيوس ؟

وإذا كانت أمة من الأمم تتخلق بخلائق جميلة، وتتصف بقيم سامية، وتهذب سلوكها في الحياة، فلماذا لا يكون ذلك عائدًا إلى رسول أرسله الله إليهم خاصة وأننا لا نعدم أحاديث مبهمة عن قادة لم يهتموا بفتوح عسكرية، ولكنهم استهدفوا هداية الناس، وتوجيههم للخير والحب والحرية والمعرفة، وهذه هي مهمة الأنبياء والرسل.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1910)، بتاريخ 5/9/2009م.

[16]

«وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا»(*)

التفكير في هذه الآية ــ بالصيغة التي أنزلت بها ــ تضعنا في صـميم قضـية فكرية عقيدية عويصة.

فظاهر النص يوحي بوضع قيد على المشـيئة الإلهية هو الأجـل، وأنه إذا جـاء هـذا الأجل، فلن يؤخر الله نفسًا.

والمسـلمون جميعًا يوقنــون أن الله تعــالى يفعل ما يشــاء، وأنه لا راد لإرادتــه، وإرادته مطلقة وماضية إلى يوم القيامة ولا يمكن وضع قيد عليها.

وهذا صحيح، ولكن الآية لا تتنافى معه، والحل الذي يبدد الشبهة هو أن الله تعالى هو الــذي وضع الأجــل، فالأجل جــزء من إرادته وهو عنــدما يلــتزم به فإنما يلــتزم بما وضعه.

وهناك آيات عديدة تقرر هذا المعنى مثل «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ».

وما يتردد في نفوسنا من شبهة تعـود إلى أننا نتصـور أن الله تعـالى يتصـرف في هــذا الكــون كما يتصــرف ملك مطلق في دولتــه، يحكمها بإرادته الخاصــة، ويطلق القرارات حسب ظروفـه.. إلخ، وهـذه الصـورة بعيـدة عن الله تعـالى، فالله يخلق كل شيء بقدر، وبحكمة، ويضع له طريقة سيره، وهو يضع سننًا لكي يسير عليها المجتمع، فمن أخذ بها حقق الفلاح، ومن تنكر لها حقت عليه الضـلالة، وهو يـترك للأفـراد حرية الاختيار ليحاسبهم يوم القيامة.

الكون إذن محكوم بالسنن والمبادئ، والأصول التي وضعها الله تعالى له، يستوي في ذلك المجـرات والمخلوقـات من حيوانـات أو إنسـان وما يميزها أن بعضـها مُسـير والبعض الآخر مُخير.

ومما يدخل في هذا أن القرآن يسـتخدم تعبـير «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ» كـالتي جـاءت في «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»، «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (الأنعام : 42ــ54)

وهو تعبير يريد الله تعالى أن يقرب لنفوسنا طريقة عمله، وكذلك أن يصف نفسه بأنه «لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً» :

- «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَـانُوا أَنفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ» (التوبة : 70) و(الـروم : 9).
- «وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (النحل : 33).
- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (العنكبوت : 40).

وكيف يمكن أن نتصـور أن يظلم الله وهو الحق والعـدل، إن الله تعـالى لا يلعب بالنرد ــ كما يقول أينشتين ــ ولكنه يدبر الأمر، ويضع السـنن والأصـول والقواعد الـتي انبثقت عنه والتي أخذت طابع الكمال الذي يجعلها صـالحة لكل زمـان ومكـان ويـدخل في هذه السنن القيم كالحرية، والعدل، والمساواة، والمعرفة، والخير.. إلخ.

إننا في كثـير من الحـالات لا يمكن أن نصل إلى مسـتوى فهم وإدارة الله تعـالى لهذا الكون العظيم، وأسـوأ ما في الأمر أننا نشـبهه بحكم البشــر، فـإن أعقل البشر وأحكمهم لا يمكن أن يسمو إلى أدنى حكم الله، وإن علينا أن نتعلم منه بقـدر ما تتسع له أفهمنـا، وعلينا أن نقـول «سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَـكَ رَبَّنَا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ» (البقـرة : 285).

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1911)، بتاريخ 6/9/2009م.

[17]
«وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ»(*)

ما أن نقوم الأديان حتى يتصدى لها فريقان :

الفريق الأول : الحكام والأغنياء وكبار الملاك والتجار الذين يستفيدون من الوضع القائم إذ يضع في يدهم السلطة والثروة، فمن الطبيعي أن يتمسكوا به وأن يضيقوا بأي تغيير، ويريدون أن يستمر هذا العهد أبدًا، فما إن يظهر دين جديد حتى يتصدو للتو لمقاومة هذا الدين، فالأديان بالنسبة للطبقة الحاكمة أعظم خطر يمكن أن يظهر وأن يزلزل قوائم عهدها ليس فحسب لأنه تغيير كاسح، ولكن لأن هذا التغير يستهدف تدمير ملكهم ويسلم هذا الملك إلى غيرهم.

والفريق الثاني : هو الذي أطلق عليهم القرآن الكريم تعبير «الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا»، وهذا التعبير يوحي أنهم لم يكونوا أصلاً ضعفاء، ولكن النظم الحاكمة توصلت إلى جعلهم ضعفاء، بتأثير ما فرضته عليهم من ضرائب ثقيلة ذهبت بمكاسبهم وأرباحهم من عملهم بحيث أصبح لا ييسر إلا القوت الضروري، بل هذا القوت لا يتيسر إلا بالعمل الشاق ليل نهار، فإذا أبدوا ضيقاً أو رفضًا سلطت عليهم قوتها القاهرة الجيش والبوليس والسجون والمحاكم التي تحكم بشرعة القوي، فلم يبق أمامهم إلا الاستسلام.

تلك في الحقيقة هي قصة الحكم ما بين سادة ظالمين وجمهور مستضعف.

يظهر القرآن الكريم الدين هنا قوة تقلب الوضع، وتنفخ في هؤلاء المستضعفين قوة إيمانية تجعلهم يتصدون، وإنما تم هذا لأنه هو ما أراده الله، وجعل دينه وسيلة لتحقيق ذلك، ولكي يرث هؤلاء المستضعفون الملك العريض من السادة المستبدين.

إن سورة القصص تعرض لنا بأسلوب القرآن المعجز قصة الحق الذي كان ضعيفاً، مستسلمًا حتى تملكته قوة الأديان، بينما يتملك التخبط والذعر هذه الطبقات الحاكمة فتأتي أفعالاً تؤدي إلى نهايتها.

وكأن الله تعالى يرمز إلى القدر الذي أراده أن تأفل دولة الظلمة وأن تسود دولة المستضعفين.

سورة القصص تبرز لنا الدين كقوة تحرير، يتملك المستضعفين فيعملون جميعًا، سواسية، تحت إمرة نبي يمثل القيادة الربانية فيكتب لهم النجاح والتوفيق.

«إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ».

لقد حاولت الجماهير خلال تاريخها الطويل أن تحرر نفسها، وأن تتوصل إلى ما يجعل ضعفها قوة، ولكنها قلما نجحت، وفي الحالات التي نجحت فيها، شاب نجاحها نقص حال دون أن تهنأ بانتصارها، أما ثورة الأديان فقد توفر لها أفضل عناصر نجاح ثورة : النظرية ممثلة في الإيمان بالله، والقيادة ممثلة في الأنبياء وإرادة التغيير الشاملة التي تنهي عهدًا لتبدأ عهدًا، وأخيرًا المشاركة الجماهيرية بشكل مباشر وفعال.

وما ترويه لنا سورة القصص إنما هو الفصل الأول من تحرير الأديان للجماهير، وسيأتي فصل آخر عندما تحرر المسيحية الجماهير من إسار قبضة الإمبراطورية الرومانية القوية العاتية بفرسانها وطرقاتها وقوانينها، والسيف الروماني القصير العريض، أما الفصل الأخير في تحرير الأديان للجماهير فهو ثورة الإسلام التي جعلت من القبائل المتنازعة أمة تحمل الكتاب والميزان إلى الحضارات الطبقية الشائخة، الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1912)، بتاريخ 7/9/2009م.

[18]
«لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»(*)

هل هناك ما هو أعذب من هذا النداء، أو أجمل وقعًا أو أكثر شمولاً ؟ إنه يقول للذين «أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» أن «لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

لقد ادعى بعض الذين يريدون تشوية الإسلام إن الله في الإسلام جبار عتي؛ لأنه عرض لصفحة من جبروته لأكابر المجرمين الذين لا يفهمون إلا لغة القوة والجبروت حتى يعلموا أن فوق جبروتهم جبروت أعظم سيحاسبهم ويوقع عليهم الجزاء، أما بالنسبة للناس جميعًا، فالله هو الرحمن الرحيم الذي يغفر الذنوب جميعًا.

هذا «كارت بلانش»، وهو تعهد مطلق لا استثناء فيه ولا شرط عليه، إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا.

حقاً إن المفسرين يفيضون القول في هذه الآية، وهذا من حقهم، ولكن يظل النص أعظم منهم جميعًا، ويظل شاملاً قاطعًا إنه ما من ذنب يمكن أن يجاوز رحمة الله.

القضية أن الله تعالى يريد أن يعرفنا على بعض صفاته، ولكن قد لا نفهم ذلك أو نقدره حق قدره، وكيف يمكن أن نقدر والله تعالى يقول «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فالله تعالى يعرض لنا رحمته التي وسعت كل شيء، ولكن هذا أمر خاص به ويعود إليه، أما عندما يراد تفعيل هذه الرحمة على المجتمع الإنساني فيفترض أن يتم ذلك في إطار المبادئ والأسس والسُنن التي وضعها الله تعالى نفسه لإدارة المجتمع، ومن أهمها إثابة المحسن ومعاقبة المسيء، لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تعالج إلا بهذا المعيار، ولأنه بدون ذلك فقد يتخذ بعض الناس من رحمة الله التي تغفر الذنوب جميعًا تكأة للإسراف في الذنوب مادام الله تعالى يغفرها.

إن الآية تعرض قسمة من قسمات الله تعالى الرحمن المطلقة التي لا يمكن لذنب أن يجاورها، وفي الوقت نفسه فإنها توضح أن تفعيل هذه الرحمة في المجتمع البشري إنما يتم في إطار العدالة التي تقضي بمكافأة المحسن وبمعاقبة المسيء.

قد يقال وما الفائدة إذن من النص ؟

نقول حتى لا يتألى أحد على الله، وحتى لا يدعي أحد أن الله لا يغفر هذا، وأن هذا مصيره إلى النار وبئس الجحيم، فليقم الناس العدالة، ولكن لِيَدَعُوا الحكم فيها إلى الله تعالى يوم القيامة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1913)، بتاريخ 8/9/2009م.

[19]

«يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً»(*)

في خمس أو ست آيات تعرض سورة الفرقـان خلائق المؤمـنين وتسـردها سـردًا أخـاذاً يمسك النفس، أو قل إنها تسـير معها لا تملك انفكاكـاً؛ لأن الآيـات كالموجـات المتسابقة تسلم كل واحـــــــــدة للأخرى، أو كل واحـدة تبـدو مسـتقلة قـدر ما تبـدو متصلة واقرأ إذا شئت : «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَـاطَبَهُمْ الْجَـاهِلُونَ قَـالُوا سَـلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُـونَ لِـرَبِّهِمْ سُـجَّدًا وَقِيَامًـا * وَالَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًـا * إِنَّهَا سَـاءَتْ مُسْـتَقَرًّا وَمُقَامًـا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًـا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْـقَ أَثَامًـا * يُضَاعَفْ لَـهُ الْعَـذَابُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَيَخْلُـدْ فِيـهِ مُهَانـاً * إِلاَّ مَنْ تَـابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُـورًا رَحِيمًـا * وَمَنْ تَـابَ وَعَمِـلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا».

فـانظر كيف يمكن لهـؤلاء النـاس الـذين يسـيرون على الأرض هونـاً، بلا بطر ولا تكبر، ولا اســـــتعلاء، ولكن بصورة طبيعية تلقائية، وهم مع هـذا يـبيتون لـربهم سـجدًا وقيامًا، وإذا أنفقـوا لم يقـتروا ولم يسـرفوا، وكـان بين ذلك قيامًـا، ومع هـذا كله فـإن الآيات لم تستبعد أن يقعـوا في كبـائر الآثـام، ولكنهم يتوبـون إلى الله متابًا ويحسـنون العمـل، وفي هـذه الحالة يحـدث أمر عجيب.. تتبـدل سـيئاتهم حسـناتهم، فيا لها من صفقة لا يمكن للتصور البشري أن يصل إليها، إن الله تعالى لم يمح سـيئاتهم الشـنيعة فحسـب، ولكنه عنـدما تـابوا وأصـلحوا العمل حـول هـذه السـيئات إلى حسـنات، فمن يمكن أن يتصور هذا، أو يصل إليه بخياله، فضلاً عن عمله، ولكنه الله، وكفى.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1914)، بتاريخ 9/9/2009م.

[20]
«وَنَفْسٍ وَمَا سَـوَّاهَا 00»(*)

من النقط الهامة فهم الدين للطبيعة البشرية.. هل هي حسـنة ؟ هل هي سـيئة ؟ وهل يفترض أن تكون حسنة لا يقربها خطأ، أو أنها خاطئة لا يصلحها شيء.

اختلفت في هذه النظريات والأديـان بحيث يغلب بعضـها جانبًا على الآخـر، فـيرى البعض أنها حسنة، كما تصور روسـو، ويـرى البعض أنها شـريرة كما تصـور هـوبز، وقد تنتهي بعضــها إلى الــبراءة الأصــلية، وتنتهي الأخـــرى إلى أن الخطيئة قد غرست في النفس.

إن الإســلام يتقبل الطبيعة البشـــرية كما جبلها الله تعــالى وعـــبر عنها في أوجز وأفضل تعبــير «وَنَفْسٍ وَمَا سَــوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَــدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا».

فالطبيعة البشرية ليست ملائكية، بل إن الفجور يسكنها كما تسكنها التقــوى، وقد قدمت الآية الفجور على التقوى؛ لأن مشاركة الناس في الفجور أعظم من مشاركتهم في التقوى.

والحق أن هـذا هو أحد أسـباب بعثة الرسل ونـزول الكتب الـتي عـبرت عنها الآية «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا».

وهذا التصوير لوجود الفجور جنبًا إلى جنب التقـوى في الطبيعة البشـرية لابد وأن ينعكس على المجتمع الإسلامي الذي هو مجموعة من أفـراد يخضـعون جميعًا للطبيعة البشرية، ولابد بالضـرورة من أن تتبـدى انعكاسـات هـذا الضـغط على المجتمع فتظهر فيه صـور عديـدة من مظـاهر الفجـور الإنسـاني؛ لأن المجتمع الإسـلامي ليس مجتمع ملائكة، ولكنه مجتمع بشر يخضعون للطبيعة البشرية.

وهناك أناس كثيرون أكثر تديناً وإسـلامًا من الدين والإسلام، فهـؤلاء يرفضـون أي إثـارة من فجـور في مجتمع إسـلامي، ويـؤثرون أن يكونـوا كالنعامــة، ولكن الإســلام يتقبــل.. ولابد أن يتقبل مظــاهر الفجــور المنطبع في النفس البشــرية جنبًا إلى جنب التقوى، بحيث يكون مجتمعًا بشريًا وليس مجتمعًا ملائكيًا.

وليس معنى هذا بالطبع الاستسـلام لانعاكاسـات الفجـور، ولكن التعامل معها بما توصل إليه الإسلام من طرق للتعامل مع الفجور البشري، وهل يعـود هـذا الفجـور إلى ضعف، أو أنه يعـود إلى شر ؟ أما إذا كـان يعـود إلى ضـعف فـإن الإسـلام يتعامل معه بطرق المقاصة على أساس الآية «إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُـذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ»، وأما إن كـان عن شر فإن الإسـلام يقابله بالحـدود والعقوبـات الرادعـة، وأهم من هـذه كلها أن الإسـلام يفرض وجود دعاة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحيـون في النفس اتجاهـات الخير والإرادة، والسيطرة على الأهواء والشهوات بما تقنع النفس بأفضلية الهدى على الضلال، وهذه هي منظومة المجتمع البشري : الفجور بنوعيه من ضعف وشر يفرضان نفسهما عليه وفي مقابلهما توجد المقاصة مع الضعف والقانون الرادع مع الشر، يوجد الدعاة الذين يأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر ويعمقـون الإيمـــان في النفـوس بحيث تقبــل طائعة على الخــير وتتجنب من تلقــاء نفســها دوافع ونـوازع الآثـام «وَمَا تَهْـوَى الأَنْفُسُ»، وتكـون الحيـاة في هـذا المجتمع مبـارزة ما بين الخـير والشـر، يوكل الحكم الأخير فيها إلى الله يوم القيامة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1915)، بتاريخ 10/9/2009م.

[21]
«إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ 00»(*)

إنها سـورة مختصـرة، ولكنها تشـير إلى البلاء الأعظم الـذي تجـذر في المجتمع الإسـلامي، لقد ظهر في أيـام الرسـول، وتحـدثت عنه السـورة، وكيف إنهم اتخـذوا إيمـانهم جنة يتسـترون وراءها ويـدفعون بها وهم يقـترفون أعظم الآثـام، والمصـيبة الكبرى أنهم ادعوا الإيمان، فلم يكونوا من الكافرين الذين يعلم المسـلمون بكفـرهم ليتجنبوهم، ولكنهم اتخذوا أيمانهم وسيلة للـدخول في صـفوف المسـلمين وبث فتنتهم وكيدهم، وقد وصل خطرهم أن أعلن الله رسوله «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

وعرض القرآن لبعض وشاياتهم وكيـدهم وتحريضـهم بقوله «هُمْ الَّذِينَ يَقُولُـونَ لا تُنْفِقُـوا عَلَى مَنْ عِنْـدَ رَسُـولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّـوا وَلِلَّهِ خَـزَائِنُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ».

لنتصور قومًا يستغفر لهم الرسـول، ولا يقبـل الله هـذا الاسـتغفار؛ لأنه يعلم ما لا يعلمه الرسـول من خبثهم وخسـتهم، فهم يحرضـون الأنصـار على أن لا ينفقـوا على المهـاجرين حـتى ينفضـوا وهم الـذين يظنـون أنهم إذا عـادوا إلى المدينة من إحـدى الغزوات «لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ» يريـدون بـذلك أنهم سـوف يخرجـون المهـاجرين من المدينة، غـير دارين أن ابن زعيمهم هو من خـيرة المؤمـنين، ولما سـمع الابن ذلك أمسك بسيفه وعندما عاد أبوه وأراد أن يدخل منعه ابنه، وقـال حـتى يـأذن لك رسـول الله ليعلم من هو الأعز.

على كل حال فإن شر المنافقين لم يستعر إلا في فترات التدهور الإسلامي الذي كـانوا هم أنفسـهم من أكـبر أسـبابه، لأنهم كـانوا كالسـوس ينخر في قـوائم المجتمع ليتزلزل أو ينهار.

والنفاق اليوم هو أكبر عامل مؤثر في المجتمع المصري، وهو أكبر أسباب تخبطه وتدهوره، وقد بدأ في البيت، فالأم التي تدلل ابنها وتحول بينه وبين أن يتحرك أو يلعب أو يعمل خوفاً عليه، والتي تحقق كل مطالبه بمجرد أن يبـدأ الصـراخ هـذا الطفل ينمو فاقـدًا لملكة الاعتمـاد على النفس أو مجابهة الواقع أو التصـرف وتحمل المسـئولية، ويتصـور أن كلمته يجب أن تطـاع، فـإذا دخل المدرسة لم تـزده المدرسة إلا خبـالاً ونقلتـه من التـدليل إلى التلقين والحفظ وحشو ذهنه بمعلومـات لا فائـدة منهـا، ولم تقـدم إليه ما يتطلبه المجتمع من مهـارات، وعنـدما جوبه بعد تخرجه بحثـاً عن عمل بالحياة الصلبة الصعبة، وأن لا أحد يأبه له، ولما كـان عـاجزًا عن القيـام بالعمل وتحمل المسئولية وأن يخـوض معركة الحيـاة، لما حصل ذلك اهتـدى إلى أن النفـاق يمكن أن يفتح أمامه الطريق المغلـق، فأخذ ينـافق رؤسـاءه حـتى رفعـوه، وفهم الجميع أن الوسيلة الوحيدة لفتح الأبواب أمام الخائبين هي النفاق، فأخذ كل واحد فيه حتى أصبح النفاق هو وسيلة الوصول.

فإذا كان هذا هو النفـاق الفـردي، فـإن النفـاق يأخذ شـكلاً اجتماعيًا يمثله التـدين الكـاذب كـإطلاق اللحية وترديد «صـلى الله عليه وسـلم»، «رضي الله عنه» وسـيدنا فلان (من الصحابة)، وتلاوة الأوراد، كل هذا ليهرب من الحديث في صـميم الموضـوع، وانتقل هـذا إلى المجتمع فالمشـاكل تقـوم ويلمسـها كل واحـد، ولكن الجميع يتجاهلها ويتجنبها ولا أحد يريد إصـلاحها، وكلهم يعـرف أن ما يقوله أو يفعله هو نفـاق في نفـاق وهو هروب من حل المشاكل واللواذ بقضايا أخرى.

إن النفـاق الاجتماعي أصبح أكبر قـــوة تحكم المجتمع المصري.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1916)، بتاريخ 11/9/2009م.

[22]
«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»(*)

كانت الهيمنة على العالم أجمع أمل أكبر الفاتحين في التـاريخ وتمناها الإسـكندر، وحاولها جنكيزخـان وتيمورلنـــك، وتصـورت الإمبراطورية الرومانيـــــــة أنها أصبحت تحكم العـــــالم، بل إن الإمبراطورية الإسـلامية في عهد المـأمون وهـارون الرشـيد كادت تحكم العالم.

ولم تتحقق أمنية فتح العالم لأي واحد من هؤلاء جميعًا، فقد ظهر أن العـالم أكـبر وأعسر من أن يجمعه جنرال عسكري أو إمبراطورية مهما كان قدرها.

على أن حكم العالم لا يعني أن يكون العـالم أمة واحـدة، فقد يسـهل على حـاكم قــوي الــذكاء في وقت مــواتي أن يحكم العديد من بلاد العـالم، ولكنه لا يسـتطيع أن يجعل منها كلها أمة واحدة.

بل إن العصر الحديث بكل قــواه وإنجازاته لا يسـتطيع أن يحقق «العولمة» حـتى وإن حطم الأبواب التي كانت تحمي الدول من عدوان الآخر، لقد تحطمت هذه الأبواب وأصبح يمكن للبيتزا.. والسيارة.. والتليفون أن تـوحِّد أكثر من أي عهد مضي رمـزاً من التلاق، أما الوحــدة الكاملة فلا يتـأتى ذلك لصـعوبات اللسـان والألــوان، والحضـارات والتاريخ.. إلخ.

ويوضح لنا التاريخ أن فكرة الهيمنة على العالم أو محاولة جعله أمة واحـدة كـانت هي أكبر أسباب تسـلل الضـعف إلى الـدول الـتي حـاولت ذلـك، والـتي نجحت جزئيًـا، ولكنها عجزت عن القيام بمسئوليات رعايا الدول التي احتضـنتها والـتي أصـبحت عبئـاً عليها، وإن تصورت أنها ستكسب منها، لأن الهدف غير طبيعي.

وتجربة الولايات المتحدة الدولة الأعظم التي ضمت أعتى قوة عسـكرية، وأعظم اقتصاد عالمي شاهد على ذلك.

هـذه الدولة العظيمة هـزمت في فيتنـام هزيمة مدويـة، وعجـزت حـتى الآن في الأفغان، مع أنها استعانت بكل دول أوروبا، ومع أنها نسـفت الجبـال نسـفاً، فلم يفـدها شيئاً ولا تـزال «طالبـان» وحسـبك اسـمها تقف كالشـوكة في الـزور، ومع أنها رزقت نصرًا ســهلاً في العراق التي كان يحكمها أسـوأ حكـام العـالم وكـان يمكن أن تـدخل دخـول المحـرر فيقابلها الشـعب بـالورود، فـإن فكـرة الهيمنة والسـيطرة والضم جعل الشعب العراقي يواجهها وأصبح العراق مستنقعًا يريد الأمريكيون أن يخلصوا منه.

وهكذا كانت نهاية أكبر محاولة في الحقبة المعاصرة لتفرض دولة سـيطرتها على العالم.

وقد حسم الله تعالى ذلك عندما قال : «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِــدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُــوَكُمْ فِي مَا آتَــاكُمْ فَاسْــتَبِقُوا الْخَيْــرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا».

وقد أوضـــحت الآية أن الله تعــــالى إنما خلق العــــالم على ما هو عليه من أمم وشعوب «لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ»، أي إن كل من هذه الدول والشعوب سـتقوم بـدورها في الحياة، وإن هذا لن يـدع الـذين يريـدون الضم والهيمنة والسـيطرة حرية العمل أو إطلاق اليد، وجاءت الآية محرضة الجميع لأن يسـتبقوا الخـيرات، فيكـون هنـاك سـباق وهنـاك تعدديـة، ولكن لن يكـون هنـاك هيمنة وسـلطة مطلقـة، فهـذا إذا حـدث فإنه يستحيل أن يظل أبد الآبدين «وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1917)، بتاريخ 12/9/2009م.

[23]
«لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا 00»(*)

أكـبر ما يتمنـاه قائـد، أو حـاكم، أن تتألفه القلـوب، وأن يكـون أتباعه من الـذين جمعت بينهم الألفـة، وهـذا ما لا يمكن أن يصل إليه حـاكم حـتى لو أنفق مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًـا، فـالقلوب لا تشـترى، كما أنها لا تحكم، وليس في يد أعظم الحكـام إلا هـذينَ المـال ليتـألف النـاس، والقـوة والبطش ليخضـعهم، وكما قلنا فهـذان لا ينفعـان مع القلوب.

وإنما تكسب القلوب بالفكرة الرائعة الـتي تكتسب من أصـالتها ومن حقيتها ومن إبداعها ما يجذب القلـوب فتنجـذب، لأن الفكر هو لغة القلب، وقد تصل عـزة القلـوبِ درجة يكون الله تعالى وحده هو الذي يمكن أن يحقق تألفها كما في الآية «فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُـوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْـرِهِ وَبِـالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ لَـوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعـاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ»، والله تعـالى قـامَ بهذه المهمة الصعبة عبر وسيلتين هما القـرآن والرسـول، القـرآن الـذي لو ألقى على جبل لجعله خاشعًا متصدعًا، فما بالك عندما يـنزل على القلـوب وهي لحمة التـأثر.. ثم جاء الرسول رحمة مهداة، ومثلاً أعلا يمشي على الأرض.

وقد ظهر أثر الهيمنة الكاملة للإسلام على نفـوس وقلـوب المؤمـنين عنـدما التجأ المهاجرون من أهل مكة الهاربون من بطش مشركيها، تـاركين ثـرواتهم وأملاكهم إلى المدينة الـتي «فتحت بـالقرآن» كما قـالت عائشـــة، فقـابلهم الأنصـار (أهل المدينـة) مقابلة الأخـوة الأعـــزة، وأشـركوهم في مـالهم ومنـازلهم ووصل عمق المحبـــة أن عرض أنصاري لمهـاجر أن يشـركه في ماله وأن يـنزل له عن إحـدى زوجتيـــه، فقـال المهاجر بارك الله لك في مالك وأهلك، دلني على السوق.

هل يمكن لأي حاكم أن يصل تأثيره مثل هـذا التـأثير.. مسـتحيل، لـذلك قـال الله «لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ»، وهذا الأمـــل الطموح مع هـذا يمكن تحقيقه لو جعل الحـاكم القـــرآن دســـتوره، ولو تأسى بالرسـول في سياسـته وتقشــفه وسموه عن متاع الدنيا، يمكن للحـاكم أن يملك القلـوب كما ملكها أبو بكـر، وكما ملكها عمر، لو احتذى بهما، وعندئذ يظفر بأعظم ما يصبو إليه حاكم : حب الناس وألفة الشعب.

أفليس هـذا هو الطريق المسـتقيم لكسب الجماهيرية ؟ أليس هو أجـدى من كل وسائل الدعاية، ومن اصطناع الأتباع، وإعطاء النواب منحًا ومزايـا، وحصـانة يمكن في ظلها ممارسة كل صور الفساد، أليس هذا أفضل من تكوين جيش جـرار باسم الأمــن المركـزي يضم الألـوف المؤلفة من الجنـود والضـباط والمئـات من العربـات الحديدية المغلقة ــ سجون على عجل ــ والهراوات التي يصعق بعضها.. يا سيدي الحـاكم لست في حاجة لهؤلاء الـذين كـان يمكن أن يزرعـوا ويصـنعوا ويتـاجروا.. كلمة حب يصـدقها عمـل.. أما كلمة حب يناقضـها عمـل، فالشـعب يعلم أنها رشـوة رخيصـة.. واسـتغفال وتخدير.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1918)، بتاريخ 13/9/2009م.

[24]
«حَرْثَ الدُّنْيَا 00»(*)

من أهم القضـايا الـتي يكـون على الأديـان أن تعالجها موقف الدين من الحيـاة الدنيـا، فبعض الأديـان يضـيق بها ويتمـنى لو خلص الإنسـان منها بطريقة أو بـأخرى، وبالطبع لن نجد في الأديـان من يحض على الـدنيا ويـأمر بالإقبـال عليها والانتهـال مما تقدمه مما تحبه النفس الإنسانية من استمتاع ولذة، وقد وقف الإسلام موقفـاً وسـطاً، فصرح في أكثر من آية :

- «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْـلاهَا مَذْمُومًا مَـدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِـرَةَ وَسَـعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَـانَ عَطَـــــاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا» (18، 19، 20 الإسراء).
- «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» الشورى : 20).

يلفت النظر أن القـــرآن وجه الحـــديث إلى «مَنْ كَـانَ يُرِيـــدُ»، أي إلى الإرادة الإنسانية، وأنه لم يضق بالذين يريدون حرث الـدنيا أو العاجلـة، وأن عطـاء الله ينـالهم لأنه ليس محظورًا، وإن كان قد حرمهم من ثواب الآخرة.

وإذا عرفنا أن العبـادة هي كل ما يرضي الله تعـالى من الأفعـال، بما فيها كل ما تحفل به الحياة الدنيا من أعمال يراد بها الخـير، وخدمة النـاس، وتيسـير التكـاليف، أو حتى الاستمتاع بما في هذه الحياة من جمال وما تثيره من لـذة فيمكن أن نتوصل إلى أن الفجوة ما بين الحياة الـدنيا والحيـاة الآخـرة.. حـرث الـدنيا وحـرث الآخـرة، ليست بالدرجة المتصورة، وأن هناك ما يمكن أن يملأها من العمل الصالح الـذي يشـترك في أنه من عمل الدنيا وعمل الآخرة.

رغم هذا.. فإن الفكر المؤصل في النفوس، وما جرت به الأفهـام من قـديم أوجد فجوة كبيرة بين حرث الدنيا وحرث الآخرة فهو يضـخم من العبـادات، بمعـنى الشـعائر والطقوس من صلاة وصيام وقراءة قرآن وتلاوة أوراد، لا يقتصر على المفروض منهـا، وإنما هناك نوافل وتطوع تفــــــوق المفـروض أضـعافاً بحيث لا تـترك وقتـاً للحيـاة الـدنيا، والمفـروض إما أن تتجلى العبـادة في كل عمل دنيـوي من زراعة أو تجـارة أو إستثمار أو صناعة، أو خدمات ومرافق أو ثقافة أو معرفة أو بحــوث علمية تكشف عن أسـرار الكـون وتجعلنا نسـتخدم مـوارده، وأن يكـون هنـاك مكـان للفنـون والآداب والاستمتاع بمشاهد الجمال وما توحي به موسيقى عذبة أو صوت رخيم وتعد هذه كلها قربات وصور من العبادة، وإما أن نعتبرها هي الحياة الدنيا ويكون على الدين أن يخلي لها الوقت الأعظم والمجـال الأكـبر، لأن الـدنيا هي الـدنيا وما دمنا نعيش فيها فلابد أن نعطيها حقها.

أذكر إني سمعت «نكتة» يلمز بها الغربيون المسلمين يقولـون : إن المسـلمين لا يفكـرون إلا في مسـتقبلهم بعد المـوت ! أما مسـتقبلهم في الحيـاة الـدنيا فلا يعـنيهم، وعندما ذكرتها لبعض المثقفين لم يرفضوها، وقالوا إن الحيـاة الـدنيا لعب ولهـــو، وأن الآخرة هي الباقية، وأنا أقـول إن هـذا ليس هو فهم القـرآن ولا الرسـول، ولكنه الفهم الذي أدى بالمسلمين إلى التدهور وأن يخسروا الدنيا والآخرة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1919)، بتاريخ 14/9/2009م.

[25]

«هذا حلال 00 وهذا حرام»[(*)]

كـان تحـريم وتحليل الإسـلام من العمق بحيث أن كلمـتي الحلال والحـرام كونتا الضمير الإسلامي ووصلتا إلى أعمـاق أعمـاق النفس الإسـلامية وجعلتـاه الفيصـل في الأحكام، وقد يوضح ذلك أغنية شعبية تقول :

تـُحرم عليَّ إيدي إن لمست إيديك   تـُحرم عليَّ عيني لو طلت عليك

ولكن الآية تنقلب :

لما تكون حلالي أحطك في عيني واتكحل عليك

إلى هذا العمق وصلت كلمتا حلال.. وحرام.

والحقيقة أن هذا التقديس إنما حدث لأن الإسلام خص كلمة حلال وحرام بالشارع نفسه، أي الله، وقال القرآن «وَلاَ تَقُولـُوا لِمَا تَصِـفُ أَلْسِـنَتُكُمْ الكَـذِبَ هَـذَا حَلالٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُـونَ» (النحل : 116).

وأصبح الحلال الذي ينص عليه الشارع حلالاً لا يحرمه أحد، كما أصبح الحرام الذي يحرمه الشارع حرامًا لا يحلله أحد.

ولكن السـلطة الدينيـة، وأهل الـذكر، يريـدون أن يشـركوا أنفسـهم في القضـية، والناس يستفتونهم وهم يرددون هذا حلال.. وهذا حرام.

لقد نشرنا بجريدة «القاهرة» يـوم 26/9/2001م، مقـالاً بعنـوان «ليس للفقهـاء أن يقولوا هذا حرام.. وهذا حلال»؛ لأن التحريم والتحليل بنص القرآن هو لله وحده.

والمفروض أن لا يقولـوا هـذا حـرام وهـذا حلال إلا إذا جـاء في ذلك نص قـرآني صريح لا تأويل فيه، أما فيما لم ينص فلا يجوز لهم استخدام هذا التعبـير حلال وحـرام، وكان الإمام أحمد وكبار التابعين يتحرجون من الحكم بحرام وحلال، ويتجنبونه ويلوذون بتعبيرات أخرى.

ما أكثر ما نسمع هـذا حـرام.. هـذا حـرام كل يـوم من مائة قنـاة تليفزيونية يقتعد مجلسها ويمسك ميكروفانتها شـيوخ لهم لحى طويلة مسترسـلة يحرمـون ما أحل الله أو ما سكت عنـــــــــه ولا يستشعرون حرجًا أو حساسية والنـاس تـأتم بـه، ويقولـون حسبك بلحيته شاهدًا ودليلاً.

كان الأدب الذي أدب الرسول صحابته أن لا يسألوا وأن يعملـوا بما علمـوا، أما ما لم يعلموه فيكلوه إلى خالقه، وأن يعتمدوا على قلـوبهم الـتي تـدلهم على الإثم عنـدما يحوك في صدورهم ويعرفـون الإيمـان بما يستشـعرونه من رضا وقبـول «إن الإنسان على نفسه بصيرة»، وقال «لا تسألوني وإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا وإذا أمـرتكم بـأمر فأتوا منه ما استطعتم»، وقال «إن أكثر الناس عذابًا يوم القيامة رجل سأل عن شيء فحرم لأجل مسألته».

كان الصحابة يتصرفون فيما لم يرد فيه نص بما ترضاه قلوبهم وما تقبله عقـولهم ولم يستشعروا بعد ذلك حاجة إلى أن يسألوا، رغم أن الرسول العظيم كـان حيًا بينهم لأنهم يعلمون أنه كان يكره قيل وقال، وكثرة السؤال.

وما نهى عنه الرسـول من كـثرة السـؤال هو التجـارة الـتي ازدهـرت أيما ازدهـار بفضل الفضائيات واللحى الطويلة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1920)، بتاريخ 15/9/2009م.

[26]
«مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ»(*)

هذه هي الجملة التي حفظها المسلمون جميعًا في أربعة أركان الأرض عن ظهر قلب، وفهموا أنها رخصة لكي يتزوجوا حتى أربع زوجات، وفسرت فحولة البعض أن المقصود بمَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ بتسع زوجات، وهو مجموع الأعداد اثنين وثلاثة وأربعة.

ولم يفكر أحد فيم جاء هذا النص الخطير، ولا ما سبقه من كلمات وما أعقبه من حديث، والمفروض أن لا تنتزع جملة قرآنية عما قبلها وما بعدها؛ لأن القرآن يتلاعب في التقديم والتأخير بما يحقق ما يقتضيه النظم الموسيقي وشدة تأثيره في النفس البشرية بحيث يحقق لها الهداية دون أي اعتبارات أخرى.

هذه الكلمات مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ، جاءت في الآية الثالثة من سورة النساء، وسورة النساء إنما أنزلها الله تعالى ليدافع بها عن المرأة، وليستبعد كل صور انتهاكات حرياتها وانتقاص حقوقها، وهي كلها رحمة وعدل وإنسانية.

الآية الأولى في السورة «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً».

والآية الثانية «وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً».

ثم تأتي الآية الثالثة «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا».

من هذا نرى أن جملة «مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ» جاءت مبنية على شرط معين هو «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى» فإذا لم يتوفر الشرط فلا إذن في النكاح مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ثم لم تقف الآية عند هذا، إنها أعقبت ذلك بشرط «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً» وليس على إذا لم تعدلوا بالفعل.

إن الأمة الإسلامية فسرت الآية في ظل ظروف كانت تبيح التعدد إلى عشر زوجات دون أي قيد أو شرط، فرأت أن الهبوط بالعدد إلى أربعة هو تقليل لتعدد الزوجات والنزول به إلى أدنى حد، أما قضية «عدم القسط في الْيَتَامَى» فلم يعلقوا عليها أهمية أو أنهم تجاهلوها كأن لم تكن، وأما «خوف عدم العدل» فقد فسروه بأنه العدل في الطعام والشراب والثياب، وكأن المرأة حيوان لا يؤثر عليها إلا العدل في الطعام والشراب والثياب، أما العاطفة فلا تعنيها.

الآية بنصها الكامل لا يمكن أن تكون رخصة حرة في الزواج مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ لأنها مسبوقة بظرف معين ومحكومة بشرط معين، ولكن ذلك لم يكن لتحتمله الأمة العربية عند نزول القرآن، فأولت الآية بما يمكن لهذا المجتمع أن يتحمله.

وقد آن الآوان لأن نعيد للآية كرامتها وأن نحترم نصوصها لأننا في ظل ظروف تسمح بذلك بحيث يكون الأصل هو الزواج بواحدة، ولا يكون الزواج بأخرى إلا في حالات معينة وبعد تسوية الأمر مع الزوجة الأولى بما يرضيها.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1921)، بتاريخ 16/9/2009م.

[27]
«ثَلاثُ عَوْرَاتٍ 00»(*)

لا يستخدم القرآن الكريم كلمة عورة إلا لما يستقبح أو يكون مكشوفاً.

في الآية 58 من سورة النور، وضح لنا القرآن الأوقات التي لا يجوز لأحد أن يزور فيها آخر فقال : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

يحدد لنا القرآن الكريم ثلاث أوقات يفترض أن لا يأتي زائر فيها، هي : أولاً من قبل صلاة الفجر، وثانيًا حين يضعون أي يخلعون ثيابهم من الظهيرة، وثالثاً بعد صلاة العشاء.

ويبرر القرآن ذلك بأن هذه الأوقات «عورات» بمعنى أنها الوقت الذي يقوم الإنسان من نومه ويغلب أن يخلع ملابسه ليبدأ في الاغتسال لإزالة آثار النوم، وفي الوقت الثاني حين يلوذ الإنسان بالقيلولة ظهرًا عندما يعود من عمله ويخلع ملابسه ويتخفف منها إيذاناً بالنوم، وهذه القيلولة أمر طبيعي في البلاد الحارة إذ لا يمكن مواصلة العمل دون أخذ هذه الراحة، وأخيرًا وبعد صلاة العشاء عندما ينتهي اليوم ويستعد الإنسان للنوم ويخلع ملابسه.

وعادة ما تقرن هذه الفترات التي تأتي بعد نوم وتستتبع خلع ملابس، بوجبة طعام قد تكون الإفطار وقد تكون الغداء وقد تكون العشاء مما يوجد ظرفاً مضاعفاً يحول دون استقبال زائر.

يفترض في كل واحد يتأدب بآداب الإسلام أن يتجنب الزيارة في هذه الأوقات حتى لا يحرج صاحبه، وخاصة وقد جاء في الآية 27 من السورة نفسها «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا»، وهذا عقاب لمن يأتي دون ميعاد، وإذا كان استقباله يحرج صاحبه أو تقلب ترتيباته، فإن من حقه أن يقول له ارجع، ومن واجب هذا الزائر أن يتقبل هذا قبولاً حسناً لأنه نتيجة طبيعية للقدوم دون سابق إذن ودون معرفة بظروف صاحبه.

كنت في زيارة للخرطوم، وفي فترة الظهيرة وبعد أن بدأت نوم القيلولة إذا بالباب يطرق ويخرج مضيفي ليقابل زائره معانقاً مرحبًا، وبعد أن انصرف قلت له كان من حقك أن تقول لهذا الزائر ارجع، فقال لو قلت له ذلك لرآني قاطعًا للرحم، مخالفاً للذوق والأدب، رافضًا للود، مرتكبًا لإهانة، ولفضحني.

وأنا شخصيًا لا أكاد آوي إلى سريري بعد عمل مرهق، وأبدأ القيلولة حتى يدق جرس التليفون فالصحفيون والصحفيات يأتون مكتبهم في الظهر تقريبًا، وما أن يجلسوا حتى يبدأوا مكالمتهم التليفونية لإجراء تحقيق صحفيًا مع عباد الله الغلابة.

إنه لمن العار أننا لا نلم بآداب الإتيكيت واللياقة، فهي في الغرب أصبحت عرفاً متبعًا دون أن يكونوا في حاجة لتعليمها، أما نحن فعلينا أن نتعلمها، وقد علمناها القرآن.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1922)، بتاريخ 17/9/2009م.

[28]

«إِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ»(*)

علمنا القرآن آداب التحية، وقد يسأل سائل وهل كان على القـرآن أن يعلمنا هـذا أيضًا.

يبدو أنه كان ضروريًا ولهـذا نـزلت الآية «وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَـنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا» (النساء : 86).

ومع هذا فيبدوا أننا لم نتعلم ما علمنا فنحن حتى الآن لا نأخذ بما أوجبه القرآن.

بيَّن القرآن أنه إذا بدأنا أحد بتحية، فعلى الآخر أن يرد بمثلها أو بأحسن منها.

وليست التحية هي السلام وحده، وإنما هي كل شيء فيه تحية.

فالهدية مثلاً هي نوع من التحية ويفترض فيمن يتقبل هدية أن يرد بمثلها، فإذا لم يكن لديه فلا أقل من أن يشكر عليها.

وإذا أرسل أحد خطابًا يحييك فيه أو يهنئك بمناسبة أو حتى يسأل عن مسألة فـإن من رد التحية أن ترد عليه، حتى وإن كان صغيرًا وأنت كبيرًا، فمـادام قد حيا فقد وجب الرد، ومن أسوأ العـادات أن يكتب أحد إلى أخيه مهنئـاً أو مسـلمًا، فلا يلقى ردًا، فهـذا نوع من احتقار المرسل، وعدم إعطائه حقه.

في مقابل هــذا نجد ســرفاً في التحية أصــبح مقبوحًا فما أن يلتقي أحد بصــاحبه حتى يعانقه ويقبله.

لا أدري من أين تســللت إلينا هــذه العــادة المقبوحــة، وقد كــانت مجهولة في الأربعينات، ولا أدري سببًا لشيوعها إلا أنها صــــورة من صور التسيب الشائع.

وقد بينت السُــــنة، الــتي تفصل ما أجمله القـــرآن، إن التحية عند اللقـــاء هي المصافحة فحسب دون المعانقة أو التقبيل، وأن هذا الأخير إنما يحدث عند العودة من السـفر فحسـب، أما في حـالات التلاقي العادية فهي مكروهـة، روي أن رجــــلاً قـال للرسول يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحـني لـه، قـال : لا، قـال أفلا يلتزمه ويقبله، قال : لا، قال فيأخذ بيده ويصافحه، قال : نعم.

ولم يحدث أبدًا أن كان الصحابة يتعانقون كلما يتلاقون.

إن انتشـار هـذه العـادة الغريبـة، وصل من القـوة أن فـرض نفسه على الأجـانب عندما يقابلون عربيًا فيبادلونه العناق والتقبيل مع أن هـذا التقبيل في العـرف والمـزاج الأوروبي أمر مقزز، فلا تقبيل إلا للنساء.

وآن لنا أن نتخلص من هذه العادة التي لا تمثل إلا نوعًا من النفاق والسرف.

إن الآية تلزمنا الأدب دون أن يـتردى إلى ما يخالفـه، حـتى الوقـوف ـــ وهو مما يــدخل في الأدب ـــ ولكن يمكن أن يتطــرق إليه مظنة الخضــوع وقد أمر الرســول أصحابه أن لا يقوموا له وكره من أحب أن يتمثل له الرجال وقوفاً.

الذوق والأدب والإسلام هو المصافحة، أما المعانقة فلا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1923)، بتاريخ 18/9/2009م.

[29]

«كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ»(*)

تتصـدى الآيـات (2ـ3) من سـورة الصف «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُـوا لِمَ تَقُولُـونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ» لظاهرة شـائعة شـديدة الانتشـار بقدر ما هي سيئة الآثار، وهي تعرض للقول تجاه العمل، فما أكثر الـذين يقولـون.. وما أقل الذين يعملـون، وهـذا لأن الكلام سـهل، والعمل صـعب، وتأخذ هـذه العملية أسـوأ صورها عندما يتعارض العمل مع الكلام، فالمتحدث يقدم وعودًا ولعله يؤكـدها بالأيمـان المغلظة ثم لا يؤدي منها شيئاً، فهـذا التنـاقض ما بين الكلام والعمل أمر يخل بالنظـام ويقضي على الثقــة التي عليها تقوم المعـاملات والعلاقـات، ويتم هـذا بسـهولة، وكـأن صاحبها لم يقترف أمرًا إدًا.

لهذا جـاءت الآية قارعة «كَبُـرَ مَقْتـاً عِنْـدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُـوا مَا لا تَفْعَلُـونَ»، ويـوحي التعبير القرآني بأن القول يتضمن وعدًا بفعـل، وأن هـذا الفعل لا يـؤدى، فهل هنـاك ما هو أكثر من هذا التعبير الصارم «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ» ولو أن المسلمين يقرأون القرآن ولو أنهم عند قراءتهم يفكـرون فيما يقـرءون، ولا يكـرون الآيـات كـرًا، لتـبينوا الجريمة التي يقترفونها كل يوم، وهم لا يعلمون أو هم يحسبونها هينة وهي عند الله عظيمة.

إن مجتمعًا يـدأب أفـراده على أن يقولـوا ما لا يفعلـون، لابد وأن يكـون مجتمعًا مفككـاً مضـطربًا، لا يسـتقيم، ولا يسـتقر، وكيف يسـتقيم أو يسـتقر والوعـود في واد والأعمال في واد آخر، أو أن الكلمات تقدم وعودًا ولكن لا وفاء بها ولا تطبيق لها.

عندما تحدث الرسول عن أمارات المنـــــــــــافق قـال «إذا وعد أخلف»، وهـذا هو ما تندد به الآية، وما تراه كبيرة الكبائر.

المجتمع السليم يقوم على الصدق، وعلى الثقة، وعلى الأمانة، فإذا اختل هـذا فلا يمكن أن يقـــوم مجتمع لأن هـــذه الظـــاهرة تهز المجتمع من أساســـه، ولأنها ليست مقصـورة على كلام من واحد لآخـر، ولكنها تشـمل كل «تصـريحات» المسـئولين في المجالات الاقتصـادية والاجتماعية والسياسـية، هي ما بين البـائع والشـاري، هي ما بين الصانع والعميل، فإذا كان كل هذا كلام لا يتبعه عمل، ووعـود لا تتحقـق، فكيف يسـتقر المجتمع.

إن عدم الوفـاء بـالعهود هو أسـوأ صـورة للكـذب لأنه يتعلق بـالتزام لا يـؤدى فهو كذب مضاعف يؤدي إلى خلل في المجتمع.

يقول المثل الشـعبي «أسـمع كلامك أصـدقك.. أشـوف أمـورك أسـتعجب»، فهل قضي على المجتمع أن يقضي حياته ما بين الصدق الساذج، وما بين الخُـلف الشنيع.

وإلى متى ؟؟!!

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1924)، بتاريخ 19/9/2009م.

[30]
«رمضان.. بين الواقع.. والواجب»(*)

يتصور الناس أن شهر رمضان هو شهر الصيام..

ولكن الله تعالى يقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»، ويبني على هذا «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ».

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» (البقرة :185).

أي إن القرآن الكريم أراد أن يكون صوم رمضان نوعًا من الاحتفال بالقرآن الذي أنزل فيه.

فإذا تصورنا رمضان كما أراده القرآن لقلنا : شهر رمضان هو شهر القرآن.

هو المناسبة التي نظهر فيها احتفالنا وتقديرنا وفهمنا وتطبيقنا للقرآن.

والقرآن فيه «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ»، ومن ثم فإن الاحتفال به يمكن أن يضم كل شيء حتى الفنون والموسيقى، والمسلسلات والغناء.. إلخ، ولكنها ليست إلا جزءًا يسيرًا من عالم القرآن العظيم.

القرآن فيه «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ»، لأنه أحال على العقل، وأمر بالفكر، واعتمد الحكمة، وهتف بالمؤمنين أن يسيروا في الأرض، وأن يتدبروا آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم.

أتصور أن يكون رمضان شهرًا تتبارى فيه كل الهيئات والجامعات، والوزارات، والهيئات الأهلية بعرض ما تقوم به وتعريف الناس بما توصلت إليه من إنجازات، ويظهر فيه الأبطال المجهولون في كل ناحية، ويظهر فيه كل فلاح استطاع أن يضاعف المحصول، وكل رياضي ضرب رقمًا قياسيًا، وكل عامل توصل إلى اختراع أو اكتشاف ينهض بالإنتاج.

كل الهيئات تنهمك ليلاً ونهارًا في إعداد معارض، اجتماعات، مؤتمرات، دراسات وكل واحدة تضم برنامجًا يوميًا أو أسبوعيًا.

بهذه الصورة يكون رمضان عيدًا للعمل.. لإبراز الجهود.. لمراجعة سير التقدم لمعرفة أوجه النقص لاستدراكها والتعرف على الإنجازات والإشادة بها.

العمل هو دليل الإيمان، لأن كل واحد يمكن أن يدعي أنه أتقى الناس.. وأنقى الناس فإذا كان عمله زورًا وزيفاً وتلفيقاً، فإن هذا هو ما ينفي إيمانه.

القرآن يقدم الجانب الإيجابي في شهر رمضان؛ لأن الصيام عن الأكل والشرب والمخالطة الجنسية عمل سلبي، وهو محدود القيمة، خاصة وأنه من الفجر للغروب يباح بعدها ما حرم قبلها، فليس له في حد ذاته قيمة كبيرة، القيمة الكبيرة هي أن يشغل يوم الصيام بما يملؤه من عمل منتج، عمل مستمر، عمل مفيد، وهذا العمل هو ما سيشغله عما يثيره الصيام من ضيق أو ملل.

هذا هو الواجب في رمضان كما يوحي به القرآن.

أما الواقع فهو بالطبع شيء آخر شيء «مختلف»، شيء يتناقض مع الواجب.

كنت في جدة أحد أيام رمضان فكدت أجن، المدينة كلها نائمة، لا وجود لها من الصباح حتى العصر، والفيلا التي أستضفت فيها ليس بها أحد كأنها مهجورة، وبعد العصر فحسب بدأت المدينة تتثاءب وتظهر فيها حركة طفيفة.

والحال في بقية المدن في العالم الإسلامي قريبة، الوزارات مفتوحة، ولكن الموظفين نائمون، مقياس العمل في كل شيء ينزل إلى أقل مستوياته بحجة الصيام،

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (1925)، بتاريخ 20/9/2009م.

فـإذا أذن المغـرب فالكل منهمك في الأكل فلا تسـمع إلا قضـمًا وبعـده يـأتي الشـاي والشيشة، وبعده ينفتح التليفزيون.

إن الهيئة الوحيدة التي قامت بما افترضنا أن تقوم به بقية الهيئـات من مضـاعفة الجهـود وإبـراز الإنجـازات هي التليفزيـون الـتي تحشـــــــد عشـرات أو حـتى مئـات القنوات ببرامج مختلفة من روايات ومسرحيات وأفلام ومسلاسلات وأغاني.. إلخ.

ومن ناحية أخــرى نجد مجموعـات تهــــرع في رمضـــــان إلى صــــلاة الـتراويح التي تطول أو تقصر، وتعمل للاعتكاف في العشر الأواخر.

لا العكوف على التراويح ولا الاستسلام للتليفزيون هو التعامل الأمثل مع رمضان.

لأن الوقت الـذي نعيش فيه هو وقت سـباق، وقت جـري، وقت طـيران، منافسة عنيفة للتوصل إلى آخر ما أثمرته البحوث في الفلـك، والرياضـة، والصـناعة، والإنتـاج، في صنع معدات القوة العسكرية من طائرات إلى غواصات إلى حاملات طائرات.

تخلفنا.. تخلفنا.. تخلفنا !!! وأبرز عنصر في هذا التخلف في الوقت، فاليوم الــذي يضيع لا يمكن استعادته أبدًا، يجب أن نعمل ليل نهار.. لا لنكون أندادًا للغرب المتقـدم، ولكن لكي نحصل على هزيمة مشـــرفة، هزيمة تجعل تخلفنا مائة ســـنة بـــدلاً من أن يكون مائتين.

* * *

وقد سأل سائل..

لماذا هذا التخلف ؟؟؟

لأسباب عديدة.. منها ــ فيما نحو بصدده ــ إن الإيمان السلفي للإسلام الذي تدعو إليه المؤسسـات الدينيـة.. إيمـان تقليـدي.. يقـوم على الاجـترار، ويعيش في الماضي ويتقبل الخرافة ولا يسـهم في الحاضـر، ومن الطـبيعي أن يخلو من الإبـداع ويسـتحلي الخرافة.

إن هذا الفهم السلفي يـؤمن أن الأسـلاف أقـدر منـا، وأننا لن نصل إلى شـأوهم، وعلينا تقليــدهم، أي إن أمة محمد أعطت عقلها إجــازة لألف عــام عنــدما أغلق بــاب الاجتهاد وصدأ العقل المسلم لعدم الاستخدام لألف عام.

فلنشكر الله أننا لا نزال نسـير على قـدمين، وكـان يمكن أن نسـير على أربع لأن الله يقول : «أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ» (الأعراف : 179).

والحل : العودة إلى القرآن.

المجموعة الثانية

إلهامات قرآنيـة

نشرت بجريدة «المصري اليوم»

رمضان سنة 1341هـ

أغسطس/سبتمبر سنة 02م

[1]
«وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ»(*)

يقــول لي كثــير من النــاس : كيف نفهم القــرآن دون أن نرجع إلى التفاســير ؟ فأقول لهم :

أولاً : إنكم تفهمــون القــرآن بمجــرد سـماعه أو قراءته لأن الله تعـالى أودع في القرآن ــ بحكم أنه معجزة الإسلام ـــ سـرًا إلهيًا، لعل أبـرز ما فيه النظم الموسـيقي، فكما أنك عندما تسمع سيمفونية رائعة، فإنك تتـأثر بها بمجـرد سـماعها، ولا تكـون في حاجة لشرح، بل إن أي شـرح قد يفسـدها، فكـذلك القـرآن، فـالقرآن له ملكة الهداية بمجرد سماعه، وما كـان الرسـول ليفعل شـيئاً لكي يحـول وثـني مكة إلى الإسـلام إلا قراءة القرآن، وقد أمره الله «وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُـرْآنَ»، فما تلاه على أحد من كفـرة قـريش إلا تزلزل الشرك في نفسه.. وقد يؤمن توًا، ونحن نعلم أن عمر بن الخطاب كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأنه صفع أخته عندما آمنت حتى نزف الدم من أنفها، ولكنه ما إن قرأ آيات منه حتى انقلب الموقف، وقال دلوني على محمد.. وأعلن إيمانه.

وقال جبير بن مطعم سمعت رسول الله يقرأ في سورة الطور فما سمعت أحـدًا أحسن صوتاً أو قراءة، فلما سمعته يقرأ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَـالِقُونَ» خلت أن فؤادي قد انصدع، وكان جبير عندما سمع هذا لا يـزال مشـركاً، وإنما كـان قد قدم لفــداء أسـرى بـدر، بل إن الرسول نفســه لما طلب إلى عبد الله بن مسـعود أن يقــرأ عليه النساء، فلما بلغ «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَجِئْنَا بِـكَ عَلَى هَـؤُلاءِ شَــهِيدًا»، قال حسـبك.. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

وعنـدما أوفـدت قـريش عتبة بن ربيعة وهو سـيدها ليثـني الرسـول عن مواصـلة دعوته، وأخذ عتبة يعد الرسول بالمال والجاه حتى انتهى، فأخذ الرسول يتلو عليه قوله تعالى :

«حم (1) تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَـابٌ فُصِّـلَتْ آيَاتُـهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لِقَـوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْـمَعُونَ (4) وَقَـالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُـوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ فَاسْـتَقِيمُوا إِلَيْـهِ وَاسْـتَغْفِرُوهُ وَوَيْـلٌ لِلْمُشْـرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَهُمْ بِـالآخِرَةِ هُمْ كَـافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُـرُونَ بِالَّذِي خَلَـقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَـلَ فِيهَا رَوَاسِـيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَـارَكَ فِيهَا وَقَـدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَـةِ أَيَّامٍ سَـوَاءً لِلسَّـائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَـبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَـابِيحَ وَحِفْظـاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُـلْ أَنـذَرْتُكُمْ صَـاعِقَةً مِثْـلَ صَـاعِقَةِ عَـادٍ وَثَمُودَ»، فقال حسبك.

وما أن أقبل عائـدًا إلى قـريش حـتى قـال أبو جهل «أحلف لقد جـاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به».

كلهم كــانوا يقولــون «حســبك»، أي كفى، فقد لمس القــرآن شــغاف قلــوبهم وأعماقها.

أما سائقو التاكسي وأصحاب المقاهي الذين يفتحون الراديو لينطلق القــرآن وهم يتشاكسون أو يتنابذون أو يلعنـون، فلا قيمة لهـذا، فهو طقس وليس دينـاً، وهو صـورة من صور إساءة التعامل مع القرآن وسوء الفهم له.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2250)، بتاريخ 11/8/2010م.

[2]
«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(*)

هذه هي أول ما يستفتح به القرآن فاتحته.. تلك الفاتحة التي صاغها القــرآن على لسان المؤمنين ليعلمهم ما يقولون.

الفاتحة ابتهال من أرق وأعذب وأجمل الابتهالات التي يتقدم بها المسلم إلى الله.

والمفروض أنه يتلوها سبعة عشر مـرة في اليـوم على الأقل عند أدائه للصـلوات المفروضة على مـدار اليـوم، ولو أن المسـلم قرأها قـراءة واعية لجعلت الإحسـاس بالســـــلام والرضــــــاء والنعمة في رحمة الله تملأ نفســــــه، وهي تخلصه من القلق والاضــطراب، وتزيل ما زحف على النفس من مــؤثرات ســيئة ما بين كل صــلاة إلى الأخرى حتى يسلم نفسه من صلاة العشاء للنوم، وعندما يقوم في الصـباح يكـون أول ما يدور على لسانه «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

بل إن المسلم عندما يسئل عن حاله فيغلب أن يجيب «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

لا تتضح قيمة الشعور بالرضا إلا عندما تقارنه بما يمكن أن يحدث عنـدما يسـيطر على النفس القلق والاضطراب.

إن القلق على النفس يشـبه الصـداع عنـدما يحـدث في الإنسـان لا يجعله يهنأ أو يستقر طوال اليوم.

* * *

إن كل الابتهال الذي تتضمنه الفاتحة هو أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم.

فاذا كان الحال مخالفاً للصراط المستقيم، فمن المستحيل أن يوجد رضا به.

إن رضا النفس في هذه الحالة يكون الشرط اللازم للقيام بإصلاح واع سليم بعيد عن لوثـــــات الغضب والســـــخط والعاطفة بحيث تشـــــوب العوامل الذاتية العوامل الموضوعية للإصلاح، وتنحرف بها.

ويكــون الرضا ليس على ما نحن عليــه، ولكن على ما أراده الله وقضى بــه، وهو في هذه الحالة : والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكننا لو فرضنا جدلاً أن الشعور بالرضا يكـون على حسـاب سـلامة الأوضـاع، أو أنه يقعد عن العمل لما هو أحسن وبلوغ ما هو أفضـل، فإننا مع تسـليمنا بـأن هـذا أمر سـيئ ووضع سـقيم، فنحن من ناحية أخـرى نعلم أن عـدم الرضا هو «الاغـتراب»، أي الشعور بعدم التكامل.

فنحن في الــوقت نفسه نعلم أن أســوأ شــيء في هــذا العصــر، والــذي عجــزت الحضارة عن الشفاء منه هو «الاغتـــــــــــراب»، أي الإحساس بعدم التكامل.. وعـدم الرضا.

من هنا فــإن الشــعور بالرضا يكــون قيمة أولى خاصة إذا وضــعنا في اعتبارنا أن المعيار المادي الذي يجعل المثل الأعلى أن يحصل الإنسان على كل ما يريـده، فهنـاك معيار يجعل المثل الأعلى هو ما يستغنى عنه الإنسان، وأن يعيش مع نفسه فقير خـيرًا من أن يخسر نفسه ويكسب كل ما يجود به العصر.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2251)، بتاريخ 12/8/2010م.

[3]

«الفرق بين التفسير والاستلهام»(*)

بعد أن كتبنا «إلهامات قرآنية» في رمضان من العام الماضي كتب ناقد «إن جمال البنا يناقض نفسه.. فهو يدعو إلى إطراح التفاسير وعدم الأخذ بها في حين يضع هو نفسه تفسيرًا».

وهذا خطأ لا يستقيم وحتى لا يتكرر نقول :

إن التفسير الذي استبعدناه هو أن يقول المفسر أن هذه الآية نزلت في فلان، ويسرد قصة طويلة عن فلان وما عمله مما اقتضى نزول الآية، فيحصر الآية في فلان وقصته، على حين أراد القرآن إرساء مبدأ أو حكم عام.

وأن يقول المفسر هذه الآية نسخت بالآية الفلانية، وما إلى هذا من إصدار الأحكام على الآيات.

التفسير يعطي الكلمات العامة معنى خاصًا فيقول «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» اليهود، و«وَلَا الضَّالِّينَ» النصارى، و«لَهْوَ الْحَدِيثِ» الغناء، «وَسفهاءكم» النساء والصبيان، وأمثال هذا مما لا يتسع له المجال.

ومعروف أن الفقهاء اشترطوا فيمن يقدم على التفسير أن يستعد لذلك بأن يحكم علوم اللغة وما فيها من نحو وصرف وبيان.. إلخ.. وأن يعلم الناسخ من المنسوخ، وأن يعلم أسباب النزول، وأن يميز بين المكي والمدني من الآيات، وأن يلم بالحديث النبوي وأحكامه، ولسان العرب وعاداتهم.. إلخ.. فجعلوا من التفسير دراسة، فيها دارس ومدروس، وهذا هو سر جبروتهم وغرورهم بما لديهم من «أسلمة»، وفي الوقت نفسه فهم في الحقيقة لم يقدموا لنا ماذا يريد القرآن، ولكن قدموا لنا ما في أنفسهم وما لديهم من مهارات وقدرات في التعامل مع القرآن والتغلب مع صعوبته.

وكأنى بالقرآن يقول لهم «ويلكم أتعلمون الله بدينه» ؟!

«أتحكمون آراءكم وثقافاتكم في النص المقدس» ؟!

الإلهام غير هذا.. والمستلهم يدخل عالم القرآن وقد غسل نفسه وروحه من كل ما وضعوه من منهجيات وفنون، وأسلم قلبه للقرآن.. دخله كما يدخل الحاج مكة محرمًا.. متجردًا.. ليس على شفتيه سوى «لبيك اللهم لبيك».

عندما يسلم المستلهم قلبه للقرآن.. يفيض عليه القرآن من المعاني.. والتوجيهات.. والإيماءات.

فالفرق بين المفسر والمستلهم، أن المفسر يعمل بما أطلقوا عليه «علوم القرآن» من ناسخ منسوخ وأسباب نزول القرآن وعلوم اللغة ولسان العرب وإلمام بالحديث النبوي ليخرج بحكم يدعي أنه حكم الآية.

أما المستلهم فإنه يتلقى من القرآن عندما يسلمه قلبه ما يفيض به عليه من إيحاءات.. ومعاني.. وتوجيهات، وهو وإن كان يتلقاها على وجه القطع من القرآن فإنه لا ينسبها إلى القرآن؛ لأن من المحتمل أنه عجز، أو تأثر، أو غير ذلك، فهو ينسب هذه المعاني والتوجيهات إلى نفسه، فيقول هذا ما استوعبت من إلهام القرآن، فإن أصبت فالفضل للقرآن، وإن أخطأت فمن نفسي.

وهناك فرق آخر هو أن التفسير يستهدف الأحكام ويقطع بها وبنسبتها إلى القرآن الكريم، أما الاستلهام فهو يكون عن توجيهات، ومعان، وإيحاءات، ويؤكد المستلهم أنه هو ما استوعبه، فالمسئولية عليه.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2252)، بتاريخ 13/8/2010م.

[4]
«وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ»(*)

ذكرت في كلمة سابقة أن القرآن يفهم بالانطباع وليس عن طريق التفسير، وأنه يؤدي رسالته وهي الهداية عن هذا الطريق.

وأريد أن أدل القراء اليـوم على طريقة أخـرى تمكنهم من أن يفهـوا القـرآن دون أن يرهقوا أفهامهم بما في التفسير من افتياتات.

تلك هي أن القرآن الكريم أشبه بثوب كبير مطوي عند بائع قماش، وعندما تذهب له لاختيار ثـوب لبـدلتك، فـإن البـائع يحمل الثـوب على يديه ويفتح منه ما يماثل نصف متر، ومن هذه المساحة تستطيع أن تحكم على لونه ونسجه، لحمته وليونته.. إلخ، فإذا أعجبك فإنك تشير للبائع فيقطع لك ثلاثة أمتـار تكفي بـدلتك، لا أحد يفك أو يطلب أن يفك الثوب أو أن يتحراه من أوله لآخره.

ومن إعجاز القرآن أنه يطبع أسراره في آيات قصـار تملك من قـوة المعـنى ومن جزالة المبنى ومن النظم الموسيقي ما يكفي للهداية.

خذ مثلاً سورة «العصر» : «وَالْعَصْـرِ * إِنَّ الإِنسَـانَ لَفِي خُسْـرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ».

إن «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّـبْرِ» تبلـور سياسة المـؤمن وما يأخذ من نفسه من التزام للحق وتواصي على الصبر.

الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة (285 و286) «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَـالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِـيرُ (285) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًـا إِلاَّ وُسْـعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِـلْ عَلَيْنَا إِصْـرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَـةَ لَنَا بِـهِ وَاعْـفُ عَنَّا وَاغْفِـرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

والقرآن حافل بالآيات والمقاطع التي إذا تدبرتها قدمت إليك الهـــــــداية، بل إن الفاتحة تقــوم بهــذه الرســـالة، والمســــــلمون جميعًا يكررونها في صـــلواتهم ولا يتأثرون، إما لأنهم لا يعطونها قلوبهم أو لأنهم يلجأون إلى التفاسير المفسدة.

والمسـلم النمطي غـير مكلف إلا بـأن يقـرأ القـرآن ما اسـتطاع، وأن يحفظ من السور والآيات ما يؤدي بها صلواته دون أن يتصور أن عليه الإلمام بـالقرآن كلـه، فهـذا ما لم يتصـوره الصـحابة الـذين كـانوا يحفظـون عشر آيـات، ثم يلحظـوا ما أثمرته في نفوسهم.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2253)، بتاريخ 14/8/2010م.

[5]
«فتحت المدينــة بالقرآن»(*)

ليست هـذه من آيـات الكتـاب المـبين، ولكنها كلمة حاسـمة من كلمـات السـيدة عائشة.

من المعروف أن الرسـول ظل في مكة ثلاثة عشر عامًا يـدعو قريشًا فلا يجد إلا الأذى والاضطهاد حتى قيض الله فريقًا من الأنصار كانوا يحجون فـدعاهم إلى الإسـلام فاسـلموا، فأرسل معهم أحد عبـاقرة وأبطـال وشـهداء الإسـلام «مصـعب بن عمـير»، وكان فتى شاب، وعكف مصعب يعلم الأنصـار الإسـلام وهو ينتشر بينهم شـيئًا فشـيئًا، وساء ذلك سادتهم «سعد بن معاذ وأسـيد بن حضـير» سـيدا قومهما وكلاهما مشـرك، فأرسل سعد بن معاذ أسيد بن حضير لـيزجر مصـعب، فالتقط أسـيد حربته وذهب إليه ومعه أسعد بن زرارة من مسلمي الأنصـــــــــار، فقال له : ما جاء بكما إلينا تسـفهان ضـعفاءنا... ؟ اعتزلانا إن كـانت لكما بانفسـكما حاجة !!، فقـال مصـعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته.. وإن كـرهت كف عنك ما تكـره، قـال : أنصـفت، فقـرأ عليه مصـعب القـرآن، قـالا فيما يـذكر عنهما والله لعرفنا في وجهه الإسـلام قبل أن يتكلم، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله وأسلم، وعاد إلى سعد بن معـاذ فقـال : كلمت الـرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًـا، فقـال سـعد والله ما أراك أغـنيت شـيئًا ثم خرج إليهما فوقف عليهما متشتمًا، ثم قـال لأسـعد بن زرارة يا أبا إمامة أما والله لـولا بيـني وبينك من القرابة (وكـان ابن خالتـه) ما رمت هـذا مـني.. أتغشـانا في دارنا بما نكره، فقال له مصعب مثل ما قـال لصـاحبه، فقـال له أنصـفت، ولما عـاد قـال قومه نحلف بالله لقد رجع إليكم سـعد بغـير الوجه الـذي ذهب به من عنـدكم، فلما وقف عليهم قال يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا ســــــــيدنا وأفضـلنا رأيًا وأيمننا نقيبـة، قـال فـإن كلام رجـالكم ونسـائكم على حـرام حـتى تؤمنـوا بالله ورسوله.

وهكذا فتحت المدينة بالقرآن على حد تعبير عائشة، فإذا كانت قـراءة القـرآن قد أثارت في المشركين هذه المشاعر فكيف بها بالنسبة للمسلمين ؟ ليس هنـاك مبالغة إذا قلنا إن الـدور الـتربوي للصـلاة خلف الرســـــــول باعتبارها المناسـبة المقـررة لتلاوة القرآن الكـريم هو أعظم ما كـوّن شخصـيات الصـحابة وما جعلهم قـادة وحكامًا بعد أن كانوا باعة وتجارًا، وهذا هو السـبب في إطالة الرسـول للقـراءة رغم ما عـرف عنه من أنه في صلاة الجماعة كان يـؤثر القصد ملاحظة للمـريض والعجـوز والأم ممن يصلون وراءه، ولكنه كان يطيل عندما يطمئن إلى أن خاصة أصحابه هم الذين يصـلون وراءه ليعطيهم الفرصة لاستيعاب معاني القرآن ؛ لأن هذا هو الـذي سـيخلق نفوسـهم خلقاً جديدًا يهيئهم لحمل مسئوليات الدعوة والقيادة والقيام بثورة الإسلام.

إن فتح المدينة ــ الذي تم بالقرآن ــ هو فتح الفتوح، وهو الفتح الذي قـامت عليه وبفضله بعده الفتوح.

ومن هنا يتضح فساد دعوى انتشار الإسلام بالسيف، لقد انتشر الإسـلام بـالقرآن، وما كسـبه الإسـلام عن طريق القـرآن هو ما قـدر له البقـاء، أما ما أكتسـبه الإسـلام بالسيف فقد فقده بصورة مأساوية لا يكاد يتصور، وأي مأسـاة أكـثر من وجـوده لمـدة ثمــان قـــرون متواصـــلة والتوصل إلى نمط فريد من الحضـــارة تقـــوم على الانفتـــاح والسماح، ثم حتى ينتهي تمامًا كأن لم يكن له وجود.

هل خسر المسلمون الأندلس لأنهم لم يعملوا السيف في تلك الجيـوب الشـمالية التي تركوها حتى قـويت وعظمت ؟؟ وهل لو أنهم اجتثوها تمامًا لتمكنـوا من الأنـدلس ؟؟

تلك قضية نتركها لعلماء التـاريخ خاصة عنـدما يضـعون أمـامهم مثلاً ما قـامت به أوروبا من فـرض المسـيحية بالسـلاح على منـاطق كـانت كـافرة بهـا، وأن سياسة «الاستئصال» هي التي مكنت من تجذير المسـيحية، في حين أن سياسة التسـامح في الأندلس هي التي أدت إلى استئصال الإسلام بها.

كائنة ما كانت نتيجة التسامح، فلنقل إن الأديــان لا تفتح إلا بكلمة الإيمـان، وليس بسيف السلطان، وأن ما حدث خلال ذلك إنما هو من مفارقات التاريخ.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2254)، بتاريخ 15/8/2010م.

[6]
«سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا»(*)

كنت كلما قرأت هذا التعبير الذي تردد في القرآن على ألسـنة المخـالفين أتوقف وأتأمل، وينتهي بي التفكير في هـذه الكلمة إلى أنها تنم على أن السـلامة الموضـوعية والمنطق الجلي لا يكفيـان لهداية بعض النـاس لارتفـاق عـدد كبـير من العوامل على نفوسهم جعلهم يقفون هذا الموقف «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا».

من هـــذه العوامل البيئة والوراثة وقـــوة التقاليد الـــتي طمست كل دعـــوة في نفوسهم، فلم يعودوا يرون شيئاً آخر سواها، ومن الطبيعي أن يقفوا موقف المعارضة.

ومن هـذه العوامل أن هـؤلاء يكونـون من أكـابر القـــوم وشـيوخ قبـائلهم، وأنهم آنسوا في هذه الدعوة الجديدة التي قـدمها الأنبيـاء ما يمس وضـعهم، وما يقضي على امتيازهم، وما يجعل الصدارة لهذا الـدين، ومن هنا فإنه يحـارب بكل عنف وبلا هـوادة، ومثلهم مثل قادة قريش الذين أصروا على حرب بدر، ولم تثـنيهم هـزيمتهم أن يعـودوا في معركة أحد، وأن يواصلوا العداء حتى النفس الأخير.

وقد وجه الله رسوله إلى أن هناك نفوسًا لا يمكن أن تؤمن وقال له «لَيْسَ عَلَيْـكَ هُـدَاهُمْ»، وأنه مهما كـان حقـه، ومهما كـانت رغبتـه، فليس شـرطاً أن ينتهي هـذا إلى إيمان من حقت عليه الضلالة وهيمنت عليه مصلحته وأوضاعه الطبقيـة، ونبه الرسـول أن لا بأس إن لم يؤمنوا بهذا الحـديث أسـفاً، وقـال له «إِنَّكَ لا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَـــــاءُ»، وقال له إن هناك من أطبقت عليه الضلالة فلا يحكم ظروفه الموضوعية فهو لا يمكن أن يقول «سَـمِعْنَا وَعَصَـيْنَا»، وعليه أن ينفض من هـؤلاء، وأن يدع أمرهم لله تعالى يوم القيامة.

وهذا ما يجب أن يتنبه إليه المجددون، وإن رفض بعض النـاس يجب أن لا يثبطهم أو يثير في نفوسهم اليأس، ففي مواجهة هؤلاء هناك «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُـونَ أَحْسَنَهُ»، فليركز عليهم.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2255)، بتاريخ 16/8/2010م.

[7]
«بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا»(*)

يوجه القــرآن الكــريم أنظارنا في هــذه الكلمــات القلائل إلى ظـاهرة من أكــبر الظواهر التي تحكم المجتمعات، وبقدر ما تكـون في بـداياتها عنصر تواصـل، فإنها بعد هذه البداية تصبح عنصر تخلف، وتكون أكبر عقبة تواجه المصـلحين والمجـددين الـذين يريدون أن ينتشلوا الأمة من وضع متجمد تسوده السلبية على الأقـل، أو حـتى اللاجهد اكتفاءً بما وضـعه الآبـاء، وينسـون أن هـذا لا يعـني إلا النظر إلى الخلـف، والسـير إلى الوراء، وهذا يضاد كل عناصر حيوية المجتمع، تلك الحيوية التي تدفعه للعمل والحركة، وتوجهه لبذل الجهد، وتحمل المعاناة، والقيام بالمسئولية، والسير بالمجتمع نحو الأمـام والمستقبل، ثم إن هذه الـدعوة منهم بـأن لا يتبعـوا إلا ما ألفـوا عليه آبـاءهم، لا تعـني سوى عدم إعمال العقل وإيثار النقل والاجترار، فكيف فـاتهم أن هـذا لا يعـني إلا صـدأ العقل، وإن صدأ العقل عندما يستمر يشل العقـل، وعندئذ فـإنهم فرطـوا في أثمن ما أودعه الله في الإنسـان، وما مـيزه به على بقية خلقــه، وما جعل الملائكة تسـجد لـه، فالعقل هو الذي يميز بين الإنسـان والأنعـام، ومن يهمله يصـبح أسـوأ من الأنعـام، لأن الأنعام ليس لها عقل أصلاً، ولهذا قال القرآن «أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ»، فالعقل هو الذي يميز به الإنسان ما بين الحقيقة والخرافـة، فـإذا لم يعمله فإنهما يصبحان سواء.

المفارقة أن الـذين يصـيحون تلك الصـيحة المنكـرة يـدعون أنهم حمـاة الحمى، وحفظة التراث، وذاكرة الأمة، وأن الذين يدعون إلى غير ما ألفوا عليه آباءهم يزجــون في عالمهم بفكر غريب ويطبقون «أجندة أجنبية».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2256)، بتاريخ 17/8/2010م.

[8]

«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا»(*)

ذكر القــرآن الكــريم موسى 136 مــرة، وهــارون 20 مــرة، ويوسف 27 مــرة، ويعقوب 16 مرة، وإسحاق 17 مرة، وسليمان 17 مــرة، وداود 16 مــرة، في حين أنه لم يذكر محمد سوى أربع مرات.

والنقطة ليست ذكر أسماء، وإن كان له مغزاه، النقطة هي أن هذا الـذكر يقـترن كل مرة تقريبًا بتوجيه إلهي لبني إسرائيل وإيضاح ملابسات هذا التوجيه.

هذا الذكر المتكرر لإحدى قبائل البشر يثير السؤال : لماذا استحقت إسرائيل هذه الأهمية من الإسلام ؟ والإسلام ــ كما هو معروف ــ لم يظهر في مصــر، ولا فلســطين حيث جرت أحداث ومواقع بني إسرائيل.

الأهمية أن الله تعالى أراد أن يضرب المثل بإحدى قبائل البشرية التي ينعم عليها بالكثير، ويختصها بمزايا، ويكل إليها رسالة، ولكنها بدلاً من أن تعـترف وتشـكر وتنهض بما أراده الله لها فإنها تنكـرت فقتلت الأنبيـاء، وتمـردت على أحكـام الـدين، وارتكبت الموبقات، فأنزلها الله من المقام الكـريم إلى أسـفل سـافلين، وضـرب بها المثل في العقوق والجحود والنكران.

وأظهر التـاريخ المعاصر أن هـذه القبيلة تسـتطيع أن تـؤدي دورًا أكـبر بكثـير مما كـانت تؤديه في عصر الرسـالة أو ما قبلـه، وأن القــرآن الكــريم استشف ذلك عنــدما ضـرب بها المثل دون غيرهـا، فما من قبيلة في العصر الحـديث اسـتطاعت أن تسـخر أقــوى دولة في العــالم (أمريكــا) بحيث يتفق ساســتها ـــ على اختلافهم ـــ في تأييد إسرائيل ودعمها حتى عندما يتطلب الأمر الضرر بمصلحة أمريكا نفسها، حتى أصـبحت وهي أصغر دول العالم تسيطر على مقاليد العالم.

القرآن إذًا أحسن عندما ضـرب المثل بها ويُـرَدُّ على تسـاؤلات الكثـيرين عن سر هذا الاختصاص، فهي المثل الأعلى للشر والعقوق والعدوان.

ومن أجل هـذا كـان القـرآن كلما يتوجه بالحـديث إلى إسـرائيل يقـول : «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْـدِكُمْ وَإِيَّايَ فَـارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقـًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2257)، بتاريخ 18/8/2010م.

[9]
«فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»(*)

السؤال الذي يتردد في فكر المفكرين الذين يعالجون قضية الـدين معالجة علمية وعلى أساس الأديان المقارنة، بل وباعتبـار الـدين «ظـاهرة اجتماعيـة» هو هل الـدين نفسه ـ كائناً ما كان ـ له طبيعة حفاظية يعمل لإبقـاء الوضع على ما هو عليـه، أو أن هذه الصـفة إنما هي من سـوء فهم الـدين من ناحية أو من أثر المؤسسة الدينية الـتي تعمل بطبيعتها لبقاء الوضع على ما هو عليه ؛ لأنه هو الذي يضمن لها الصفة الممتازة، ويكفل لها الوظائف المرموقة والتمثيل الاحتكاري للدين.

لقد عجز هؤلاء عن التفرق ما بين الأديان السماوية الـتي تمثل المرحلة المتقدمة للأديـــان عن المرحلة الأولى الوثنية وما فيها من ســـحر أو دجل أو كهانـــة، كما أنهم عجزوا عن التفريق ما بين المرحلة الأولى للأديان عندما يكون الدين تحت قيادة النبي، وما بين المرحلة التالية التي تفقد فيها الأديان أنبياءها وهم القـادة المؤهلـون، ويتـولى الأتباع والسدنة، ثم تظهر المؤسسة الدينيـــة المحتكرة التي تعمل عادة بالتحـالف مع الحاكم وتستهدف الإبقاء على الأوضاع القائمة.

إن ما يحسب على الأديان هو ما جاءت به الأديان في كتبها بلغتها الأصلية قبل أن تعيث فيها الترجمات فساداً، وما قام به بالفعل الأنبياء أنفسهم وليس السدنة.

إذا لحظنا هـذا التكـييف فإننا لا نسـتغرب أن يطلق القـرآن صـيحته «فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ».

وفي هاتين الكلمتين نجد في الأولى أمرًا بالاستباق، ونجد في الثانية أن هدف هذا الاستباق هو «الْخَيْرَاتِ».

إن القرآن لا يقدم توصية، ولكنه يوجه أمرًا يفرض أن يعمل كل مسـلم لتحقيقـه، ومعنى هذا أن يكون كل مسلم «متسابق».

ما أبعد هذا عما في أذهان بعض المسلمين أو بعض الفقهاء، خاصة إذا أضفنا إليه ما تطـرق إلى نفوسـهم عن «التوكـل» الـذي جعل البعض يفهم أنه إذا اعـتزم التوكل تمامًا فـإن الله سـيرزقه من حيث لا يحتسـب، وعلى هـذا الأسـاس جلس أحـدهم في المسجد متكلاً، وأمضى يومًا كاملاً صابرًا منتظرًا، وفي اليوم التـــالي جاء رجل يقول : هل من يريد الطعام ؟ ولكن الرجل سكت حتى لا يفسد توكله، فانصرف الرجـل، وفي اليـوم الثـالث وقد فعل الجـوع فعلـه، جـاء الرجل يسـأل عمن يريد طعامًا ؟ خشى أن يتكلم فيفسد توكله، فتنحنح بصوت عالٍ، فتنبه إليه الرجل ودعاه فقـال «هل كـان لابد أن أتنحنح» ؟

القرآن يريد من المسلم أن يدخل في سـباق، وأن يكـون هـدف هـذا السـباق هو «الْخَيْـرَاتِ»، لم يقل القـرآن : الإسـلام.. أو الصـلاة.. أو أن يعمل عمـرة، ولكن قـال «الْخَيْرَاتِ» ليعم كل عمل طيب فيدخل فيه العلم والمعرفة، ويدخل فيه إتقـان العمل وإحكامه، ويدخل فيه رعاية الجار والصـديق، ويـدخل حسن مشـاركته لزوجته إلى آخر ما تعطيه كلمة خير.

والقرآن في صياغته «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، هو كما في صياغته «الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر» يذكر المضمون دون أن يذكر الشكل الذي يأخذه حـتى لا يحـدد أو ينحصر، وهكذا يكون الباب مفتوحًا على مصراعيه.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2258)، بتاريخ 19/8/2010م.

[10]
«وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ»(*)

في طفولتي وعند تحفيظنا لجـزء «عم» كـانت هـذه السـورة من أصـعب السـور عليَّ، كما كان معناها مما لم أتفهمه.

إن الآية باختصار تحذر مما نقول عنه «الكيل بمكيـالين»، وهي تعـنى بعـالم الـبيع والشراء عندما يبيع أحدهم شـيئاً فلا يفي الكيـل، وعنـدما يشـتري فإنه يريد زائـدًا عن الكيل، فهو يطفف عنـدما يـبيع ــ أي ينقص حينـاً ــ وهو يسـتوفي ويزيد حينـاً آخر ــ عندما يشـتري فكأنه يكيل بمكيالين.

والسورة تنطبق على معاملات الآحـاد بعضـهم بعضًـا بـائعين ومشـترين بالكيل أو بالوزن، ولكنها أيضًا تنطبق في وصفها وفي توعدها بالعذاب الشديد، والمحاسـبة أمـام الله على تصـرفات الـدول الكـبرى مع الـدول الصـغرى كالولايـات المتحـدة فهي مثلاً تبحث في كل خـرم إبـرة عن إرهـاب مزعـوم، وتتجسس على إيـران وتـراقب عملها الذري، وتثير الدنيا وتقعدها لذلك، في حين أنها تغض الطرف عن إسرائيل، وهي الـتي بدأت الإرهاب في العصر الحديث ووجهته نحو بريطانيا قبل أن توجهه للعرب ففجــرت فنـدق الملك داود مقر القيـادة البريطانيـة، وقتلت ضـباطاً بريطـانيين وعلقتهم على الأشجار حتى أصبح كبيرهم «بيجين» شخصًا مطلوبًا أمـام المحـاكم، وتعلق اليافطـات التي تحمل صورته واسمه تحت لقب «WANTED»، أي مطلوب القبض عليـه، وهي تتجاهل النشاط الذري الذي تقوم به عيانـاً جهـارًا حـتى أصـبحت تسـتحوز على مـائتي قنبلة ذرية تكفي لنسف وتدمير العالم لأكثر من مرة.

وداخل كل دولة من دول العالم الحديث نجد الكيل بمكيـالين رغم وجـود القـانون والدستور، لأنه لا يمكن للدولة أن تراقب ما يعمل الناس، والناس يكيلون للأبيض بكيل وللأسود بكيل آخر، للأوروبيين بكيل وللآسيويين والأفريقيين بكيـل آخر، وللأغنيـاء بكيل وللفقراء بكيل آخر، وللرجال بكيل وللنساء بكيل آخر.

رغم أن هذه المجتمعات كلها تقدس القانون وأن دساتيرها كلها تقـرر المسـاواة، ولكن ما تعرفه القوانين أو تـذكرة الدسـاتير شـيء، وما يقر في النفـوس شـيء، وهو يعود إلى التاريخ والتقاليد، وما استقر في الأعماق من مفاهيم، وكلها تدعم التفرقة.

إن التطفيف أصـبح مشـكلة على المسـتويات المحليـة، وعجـزت القـوانين عن ملاحقة الغشاشين في صـناعات البنـــاء، والصـناعات الغذائيـة، وفي الأسـمنت ومـواد البناء.. إلخ، ولكن المسئولين مع ذلك لـديهم الآليـــات الـتي تضـبط ذلـك، ولكن الأمر يختلف على المستوى الدولي، فحتى المحكمة الجنائية الدولية فـإن الولايـات المتحـدة نجحت في أن يكـون للمسـئولين الأمريكـيين حصــــــــــــــانة من اختصاصـها، في حين أنها تصر على طلب «البشير» رئيس السودان.

وموقف هذه الـدول يعـود إلى أنها لا تـؤمن أنها سـتقف يومًا ما موقف المسـاءلة أمام الله، لأن أوروبا قد آمنت من وقت طويل بأن الله قد مات!

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2259)، بتاريخ 20/8/2010م.

[11]
«أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ»[*]

عنــدما يجعل المجتمع «وازع الــربح» هو الهــدف الأســمى كما هو الحــال في المجتمعات الرأسمالية، فليس من الغريب أن تكـون القـوة الدافعة له هي «التكـاثر»، فمن ليس لديه مليون يتوق ويكافح ليصل إلى المليون، وعندما يصل إلى المليون، يجد أن سبيل التكاثر للوصول إلى المليون الثاني أسهل بكثير مما بذله في سبيل المليــون الأول وعندئذ لا يـتردد، وتسـتمر عملية التكـاثر «حَتَّى زُرْتُمْ المَقَـابِرَ»، وعندئذ فحسب تقف المطامع ويعود الإنسـان كما بـدأ لا يطلب إلا حفـرة ضـيقة هي القـبر، وقد يوضع في تابوت ويغلق بالمسامير، لا تفيده الملايين في شيء.

وعندما مات أحد الأثرياء، قال رجل لعمر بن الخطاب : إنه ترك ثلاثين ألفاً، فقـال عمر : «ولكنها لا تتركه».

فما حسبه انتصارًا وإنجـازًا سيصـبح امتحانـاً وبلاءً، وسيحاسب عليه « ثُمَّ لَتُسْـأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ ».

وقد قال بعض المفسرين عن هذا النعيم الذي سنحاسب عليه إنه «الماء البارد»، فلم يكن في خاطر الأعرابي في صحراء قاحلة وفي حر يصهر الجلود أشهى من كوب من «الماء البارد».

ولكن أين يذهب هذا التفسير من عالم التكاثر الرهيب، عالم الكفــاح في منافسة لا تقل عن المصارعة القاتلة.

أين هو عالم السيارات الفارهة والفيلات الأنيقة المترفة ؟

أين هو من اليخوت والطائرات الخاصة ؟ ومن المنتجعات في مختلف دول العالم ؟

كان الرأسمالي الأمـريكي روكفلر في صـناعة البـترول مثل أتيلا وجنكيزخـان في التتار، لقد دمر بلا رحمة كل شـركات البـترول المنافســــــــة بطـرق شـريفة وغـير شريفة ليكوِّن شركته «ستاندرد أول» التي أصبحت الشـركة «القياسـية» في صـناعة البترول، وأعيى الحكومة حتى سنت قانوناً يحرم الاحتكارات، ولكنه تهرب منه .

وفي أخريات حياته نصحه مستشاروه بأن يعمل لتحسين صورته في الرأي العام، فــالتقطت صــور له مع أطفــال في أحيــاء فقــيرة.. إلخ، كما أنه تنبه ـــ قبل أن يـزور المقابر ـ إلى إقامة مؤسسة خيرية كبرى خصص لها الملايين.

كأنما استفاد روكفلر من الآية، وانتفع من التحذير فيها بإقامة مؤسسته الخيرية.

ونحن نسمع حاليًا أن أكبر «مليونيرات» أمريكا يتـبرعون بنصف مليـاراتهم، وربما أكثر لمشروعات خيرية خالصة.

ترى هل وصلت سورة التكاثر إلى ما وراء البحار حـتى طـرقت مسـامع أصـحاب البلايين، ولم يسمعها العــــرب الذين أنزلت لهم وفيهم.

وقد أثار بعض الكتاب ملاحظات حول تعبير «زُرْتُمْ» بصيغة الماضي واللبس الذي قد يؤدي لمعنى زيارة القبور وليس الدفن فيهـا، ونسى أن القـرآن الكـريم في تخـيره للألفاظ فإنه يلحظ بجانب المعنى المألوف الـوزن الموسـيقي للكلمة ودرجة تآلفها مع ما سبقها ولحقهـا، ويعطي ذلك أولوية لأنه هو الـذي يـؤثر في النفـوس ويحقق الهداية ومن أجل هذا استخدم «زُرْتُمْ»، وجاء التركيز في المعنى على «المَقَابِرَ»، لأن القـرآن حاكم في اللغة، كما هو حاكم في العقيدة، وله تعامله الخــاص معها الـذي قد لا يفهمه النحويون الجفاة.

---

[*] نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2260)، بتاريخ 21/8/2010م.

[12]
«وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ 00»(*)

الزكاة ثالث أركان الإسلام في الحديث المعروف، وهي تأتي بعد الشـهادتين وبعد الصلاة.

والقـرآن يقـرن دائمًا ما بين إقامة الصـلاة.. وإيتـاء الزكـاة، فلا يقـول «يُقِيمُـونَ الصَّلاة» إلا ويأتي بعدها «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ».

فهي من هـذه الناحية ذات صـفة عقيدية مقدسـة، ولكنها من ناحية أخـــرى لها بحكم طبيعتها صفــــة مجتمعية تربطها بالحياة الدنيا.

وهي الفريضة الوحيـدة الـتي أوجبت حربًا على من رفضـها، فالإسـلام لا يحـارب مسلمين لأنهم لا يقيمون الصلاة ولكنه حارب مسلمين لأنهم رفضوا الزكاة.

ذلك لأن الصـلاة مهما كـانت قداسـتها فأمرها إلى اللـه، وهو يعـاقب على إهمالها في الآخـرة، ولكن الزكـاة لها صـفة «دنيويـة» مجتمعية لأنها تمثل التكافل الاقتصـادي وإهمـال هـذا المرفق يمكن أن يسـمح بتحـول المجتمع الإسـلامي من مجتمع العـدل والمساواة إلى مجتمع الظلم والاسـتغلال، ويمكن أن يوجد فيه ملايين من الجيـاع جنبًا إلى جنب مئات من الأثرياء المترفين.

من أجل هذا جاز لأبي بكر أن يحارب الذين رفضوا دفع الزكاة.

لقد تنبه الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام إلى «الضـمان الاجتمـاعي» أو التأمينـات الاجتماعية التي لم يعرفها المجتمع الأوروبي إلا حديثاً، والصورة التي جاءت بها الزكـاة أفضل من صور معظم نظم التأمين الاجتماعي لأنها :

(1) حق معلوم ــ وليست مِنَّــة وإحسـاناً أو فضـلاً من الأغنيـاء ــ إنها حق فرضه القـرآن والسُـــنة وأوجب النظــام الاقتصــادي للإســلام على المسـئولين جبايتها والإشـراف على توزيعها على مسـتحقيها ونص الشـافعي على أن للفقـير أحقية اسـتحقاق المـال حـتى صـار بمنزله المشـترك بين صـاحبه وبين الفقـير، ويجـوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة إذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه.

(2) وعلى هذا الأصل ترتب أصل آخر هو أنه ليس على مستحقي الزكـاة أن يـدفعوا شيئاً لاستحقاقها ومعظم التأمينات والمعاش تشترط أن يدفع المسـتحق قسـطاً أو يخصم من مرتبه حتى يسـتحق التـأمين، والنظم الـتي يعفى فيها المسـتحقون من دفع أقسـاط يكـون التـأمين فيها من الهـزال بحيث يسـتكمل عـادة بتـأمين إضافي يسهم العامل فيه بدفع أقساط متفاوتة.

(3) لما كان مبرر الأحقية في الزكاة هو الاحتياج، فإن الزكاة تكون حقا للمحتاجين دون أن تكون مقصورة على فئات دون فئات وفي معظم الدول تكـون التأمينـات الاجتماعية للعاملين بـأجر دون الحرفـيين أو المهنـيين أو صـغار التجـار والفلاحين الذين يكون عليهم أن يلوذوا بنظم التـأمين التجارية وقد شـمل اسـتحقاق الزكـاة المحتاجين حتى من غير المسلمين في بعض المذاهب.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2261)، بتاريخ 22/8/2010م.

(4) ينبني على هذا الأصل أن تكون الزكاة على قدر الحاجة على حين أن التأمينات الاجتماعية في العالم بأسره تقدر بمعايير أخرى خلاف قدر الاحتياج مثل مدة الخدمة وقيمة المرتب وقيمة القسط المدفوع.. إلخ، وهذه كلها لا علاقة لها بحجم الحاجة وهي بصفة عامة تقلل من قيمة التأمين لأشد الفئات احتياجًا.

إن الزكاة تضع حدا معقولاً للإعفاء فلا يدخل في نصاب الزكاة دار السكن والثياب الخاصة والقوت المدخر لطعام العامل وآلة العمل التي يحتاجها المكتسب بيده ودابة الركوب، وأن يتوفر بعد هذا كله فائض كاف.

وكل من يدرس المجتمع الحديث يجد أن ضحالة العدالة الاجتماعية من أكبر الأسباب التي كدرت سماء صفوه، وأحالت سلامه الاجتماعي إلى حرب طبقية، وأن ظهور النقابات وجهودها البطولية لم تنجح في تحقيق «الندية» بين الطرفين، ولو كان لدى هذه الدول معرفة بالزكاة لأسهمت هذه المعرفة في استكمال نظم التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي، ولكنها من ناحية أخرى لن تستطيع أن تجعلها فريضة في دين لها من القداسة ما للدين.

السؤال الممض هو أين الزكاة الآن ؟!

[13]
«يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ»(*)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب مقدس في القرآن الكريم، يكثر من الأمر باتباعه والمحافظة عليه، ونجد أجمل وأشمل ذكر له في الآية 71 من سورة التوبة «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

فهنا نجد النص عليه شاملاً المؤمنين والمؤمنات وسابقاً للصلاة والزكاة.

كما نجد التحذير من إهماله في تقريع بني إسرائيل «كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

عندما أوجب القرآن على المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه أوجد الضمير الاجتماعي في نفوسهم هذا الضمير الذي يتحرك لا لمصلحة الفرد، ولكن لمصلحة المجموع، والذي يقبل طواعية أن يضحي بمصلحته الخاصة لحساب المجتمع، وقد امتدح القرآن الأنصار الذين «يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»، وأي مجتمع لابد وأن يتطلب جماعة على استعداد للتضحية بنفسها حماية له، وبدون ذلك يتعرض هذا المجتمع لهجوم الأعداء وللقضاء على استقلاله، وأن يكون الشعب بأسره تبعًا للفاتح، فالضمير الاجتماعي شرط رئيسي في وجود المجتمع وبقائه وحمايته من العدوان.

لم يفهم المعاصرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم أبناء مجتمع رأسمالي القوة الدافعة فيه هي «وازع الربح»، أو أبناء ديمقراطية تقوم على الفرد، وترى أن تدخل الفرد فيما لا مصلحة مادية له تطفل وتجاوز، ولهذا ترفض المحكمة دعوى لأن رافعها ليس له مصلحة فيها.

المجتمع القرآني يرفض هذا المنطق.. إنه يرفض مجتمع «الأنامالية».. يرفض مجتمع السلبية، ويرى أن أي شيء يمس المجتمع إنما يمس كل فرد، وأي فرد يكون من حقه التدخل، فالمجتمع جسم واحد يشد بعضه بعضًا، والمسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم، والرسول يقول «من غشنا فليس منا» و «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

وحقيقة الحال أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسيء فهمه قديمًا وحديثاً ففي القديم أخذ شكل تحطيم أواني الخمر، وتدمير الآلات الموسيقية، وفي الحديث أخذ شكل رفع قضية حسبة على كل مفكر يجدد في الإسلام، أو كل فنان أو شاعر أو روائي، يعبر عن مشاعره حين يظن العوام أنه يسيء إلى الدين.

إن هذا العمل يناقض فلسفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تقوم على حرية الأفراد في التعبير عن مشاعرهم، فلا يمكن أن يكون وسيلة لإخراس أصوات أو مصادرة مطبوعات، والأسوأ التفريق بين رجل وامرأته، إعمالاً «لأرجح الأقوال في مذهب أبي حنيفة» إذا اعتبر زوجها وهو مفكر إسلامي زنديقاً.. ملحدًا.. مرتدًا.

إن القرآن عندما جعل من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة، فإنه جعل الضمير الاجتماعي جزءًا من العقيدة، وهو الأمر الذي فشل فيه كل الفلاسفة والمشرعين الذين قصارى ما وصلوا إليه أنه واجب يفترض أن يؤدى دون أن يكون فريضة دينية ملزمة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2262)، بتاريخ 23/8/2010م.

[14]
«وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى»(*)

خاطب الله تعالى رسوله بهذا الاستفهام الاستنكاري عندما كان منهمكاً في محاولة هداية بعض علية القوم، وشغله هذا عن إجابة رجل أعمى فقير من عامة المسلمين، جاء يسأله عن مسألة.

وليست أهمية الجملة في مبناها اللغوي وأنها استفهام استنكاري، ولكن أيضًا في معناها، لأنه من البدائه أن مهمة الرسول هي هداية الناس، وأنه كان منهمكاً في هذه إحدى محاولات تحقيق الهداية التي كان يرجو من وراءها كسبًا كبير للمؤمنين، ولكن ذلك شغله عن الرد على رجل جاء يسأل ويطلب المعرفة، وأدخل هذا عنصرًا «طبقيًا» في القضية، والإسلام يُسوي بين الناس جميعًا، بل قد يجعل للفقير والضعيف أولوية، ومن هنا جاء الاستنكار.

أتصور أنه لو لم يوجد هذا العنصر ــ ليوجه القرآن الرسول لأن يقصد في الطلب ــ حتى لو كان الطلب هو الهداية، لأن مهمة الرسول هي عرض الهداية دون تحقيق الهداية بالفعل لأن مهمة الرسول مقصورة على التبليغ، أما الهداية فإن الله وحده هو الذي يهدي، ولأنه هو الذي يهدي من يشاء.

وأن تقتصر دعوة الرسول على البلاغ، فهذا ما تصوره آيات عديدة، بينما جردت آيات أخرى عديدة الرسول من أي سلطة خلاف التبليغ، فهو ليس مسيطرًا، ولا حفيظاً، ولا حتى وكيلاً عن الناس، والحكمة التي قد تدق على الناس في هذا أن الله تعالى يريد أن يكون الناس أحرارًا عندما يعتنقون الإسلام، وأن يأتي هذا الاعتناق دون أي عنصر من عناصر الضغط حتى لو كان مضمرًا كشدة الإلحاح، ومن هنا قال القرآن بصراحة ليس بعدها صراحة «وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» ففي هذه الحالة يتوفر الكمال للداعية وللمدعو إليه، وتصبح العملية عرض وقبول، فلا يريد الإسلام هجرة إليه يشوبها غرض، ولا يريد فردًا يدخله لقاء جاه أو مال أو سلطة.

إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا خالصًا لوجهه.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2263)، بتاريخ 24/8/2010م.

[15]
«وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً»(*)

هـذه هي الآية الـتي أضـفت على الـذين يقتلـون في سـبيل الله أكليل الشـهادة، وضمنت لهم الحياة عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضـله، ويستبشـرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم «أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».

القتال «كُرْهٌ» بتعبير القرآن، وأعتقد أنه ما من جريمة تقترف مثل الحروب الـتي هي طريق جماعي لإهدار الـدم وقتل النفس الـتي حـرم الله قتلهـا، لأن الإسـلام جعل الحياة حق مقدس لكل إنسان.

هناك حالة واحدة فحسب يُقبل فيها القتـال، بل إنه ينقلب من جريمة إلى فضـيلة تلك هي عندما يُراد استخدام القوة العسـكرية لقهر الإرادات، وتغيـير العقائـد، وتبـديل المبادئ، لأن معنى هذا أن تكون الحياة ذلاً واسـتعبادًا وحرمانـاً للإنسـان من أعظم ما أنعم الله عليـه، وما به جعله إنسـاناً متمـيزًا على بقية الكائنـات، ألا وهو التجريد من الضمير ومن الإرادة.

هنا يحل القتال، بل يصـبح واجبًا لأنه في حقيقة الحـال ليس قتـالاً، ولكن دفاعًـا.. دفاعًا عن إنسانية الإنسان.. دفاعًا عن حرية الاعتقاد.

بهــذا القيــاس تصــبح كل الحــروب الــتي تحللها حكومــات وتصــدر بها قــوانين وتشريعات ليست إلا ممارسة الجريمة على مستوى قومي.

وتصل بهذا، ويُعد جزءًا منه أن تـرغب دولة في الاسـتحواز على الأرض، وما يعنيه هـذا من إخضـاع مصـدر الـثروة ومـوطن الإقامـة، وما يحصل عليه الأفـراد من غلتها ومعدنها كله للجيش المنتصر ولدولته، وليس لأصحاب الأرض وشعب هذه الأرض، فهذا أيضًا تجريد من المقوم المـادي، وهو لا يقل عن التجريد من المقـوم المعنـوي الخـاص بتغيير العقائد.

بهذا القياس تصبح كل الحـروب ـــ الـتي لا تكـون دفاعًا عن العـرض أو الأرض أو المبدأ أو الدين ــ جريمة نكراء، وممارسة للقتل بالجملـة، بـالألوف وبعشـرات الألـوف ويُعد كبار القادة والأباطرة أكـابر مجرميها الـذين يسـتحقون المحاكمة في الـدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار.

وليس هذا بظلم لهم، لأنهم سودوا التاريخ بالدماء المهدرة، وزيفوه، وجعلـوه أداة لاستعباد الإنسان وإخضاع إرادته، واستصفاء ثروته.

وليس هناك ما هو أسوأ من هذا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2264)، بتاريخ 25/8/2010م.

[16]
«وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ»(*)

يُخاطب القرآن الكريم النساء والرجال، وبحكم السياق فإنه يفترض مجتمعًا يحقق قدرًا من الندية بين الرجال والنساء بحيث يستشرف كل واحد منهما ما خصه الله به من فضل، فالآية تجمع ما بين المساواة، وفي الوقت نفسه التميز الذي أراده الله عندما خلق الإنسان رجلاً وامرأة، ولم يجعله رجلاً دون امرأة، أو امرأة دون رجل.

وما تلقيه الآية في روعي هو أن الله تعالى خص كلا من الرجال والنساء بمزايا متفاوتة، ولكنها تتفق مع طبيعة كل من الرجال والنساء.

أعطى الرجال القوة العضلية والإرادة الواحدة ليشق طريقًا وسط صعوبات الحياة ومشاقها غير مثقل بشيء في تكوين جسده، وتكوين إرادته.

ولكن أعطى المرأة الجمال بدلاً من القوة، كما أنه جعلها من الزاوية البيولوجية مؤهلة لرسالة عظمى هي الأمومة، التي لولاها لما بقيت البشرية، ولما شبت الأجيال.

ولا يريد القرآن للرجل أن يتمنى ما كفله الله للمرأة، فيسعى ليصير جميلاً، كما أنه لا يريد للمرأة أن تتمنى ما أعطى الله الرجل من قوة وبأس وخشونة.

وفي الوقت نفسه فإنه جعل لكل واحد منهما اعتزازه الخاص الذي يؤمن أنه الأفضل فيعتز الرجل بالقيادة وتحمل مسئوليات العيش والكفاح في غمرات الدنيا للحصول عليه، بينما جعل الله المرأة السبيل لظهور الطفل الذي يمثل المستقبل ورعاية هذا الطفل منذ أن كان قطعة لحم لا يتكلم ولا يسير إلى طفل قوي يسعى و«يتنطط»، ثم إلى شاب، فأي ميزة مثل هذه، إن الله تعالى استحفظها على الجيل، ولولا رحمتها ومحبتها وعملها الدائب وتفانيها ونسيانها لنفسها لما شب الطفل ولما ظهر الجيل.

كل واحد إذن له اعتزازه الذي لا يمس اعتزاز الآخر لأن له طبيعة متميزة.

وعندما أوجد الله تعالى الإنسان رجلاً وامرأة، فإنه قدر لهما أن يتزوجا وعندما يتزوجا يتحقق الكمال وتكمل المزايا التي أنعم الله بها على كل واحد منهما بحيث تتحقق الحياة السعيدة.

ومن الواضح أن هذا هو الحكم العام الذي لا يخل به وجود استثناءات، فقد توجد المرأة التي لديها قوة الرجل، وقد يوجد الرجل الذي لديه رخاوة المرأة، ويمكن أن توجد المرأة التي لديها ملكات عقلية خارقة ومواهب هندسية ورياضية، فهذه يكون مكانها «المعمل» أكثر من البيت، وقد توجد المرأة التي تضرب الرجل، وإن كان الظن أن الرجل هو الذي يضرب المرأة، فهذه كلها صنوف من الشذوذ الذي توجد ولكنها لا تؤثر على القاعدة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2265)، بتاريخ 26/8/2010م.

[17]

«وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»(*)

في آية ذات أهمية كبرى في مستهل سورة آل عمـران عَرَّفنا الله على مضـمون القرآن وأن فيه آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، وحدد لنا الموقف منها، أما المحكمـات فقد قـال عنها «هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ»، ويكتفي بهـذا كناية عن أنها أسـاس المحتوى القرآني، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا جـاء القـرآن بمتشـابهات، خاصة بعد أن ذكر أن «الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ زَيْـغٌ» يتبعـون ما تشـابه منه ابتغـاء الفتنة وابتغـاء تأويلـه، وقطع بأنه لا يعلم تأويلها إلا الله وأن «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» يقولون «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ».

لست أرى مبررًا موضوعيًا لذكر المتشـابهات إلا أن اللغة تعجز عن تصـوير عـالم الغيب، ولا تستطيع أن تعبر عن ذات الله وطبيعته، فما اللغة إلا وسيلة ابتدعها الإنسان ليمكن له مخاطبة الآخـرين، ومن ثم فهي تعجز عن تصـوير ما يجـاوز عـالم الإنسـان، وفي الوقت نفسه فقد كان لازمًا للقرآن أن يعـرف النـاس على شـعاع من قـدرة الله وعظمتـه، وأن ينفي عنه ما قد يتبـادر في الـذهن البشـري من إثـارة بشـرية، ومن هنا جـاءت المتشـابهات، وهي الآيـات الـتي تتكلم عن الله تعـالى، وعن عـالم الغيب بلغتنا دون أن يكـــون فيها شـــيء حقيقي مـــادي تـــوحي به لغاتنـــا، ومن هنا كـــان موقف «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ».

إن إعجاز الآية أن ما تنبأت به هو الذي حدث فعلاً.

وأن فريقان من الناس ترك الآيات المحكمات التي هي أم الكتـاب وانحـاز بكليتيه إلى المتشابهات، ووصف القرآن هؤلاء بأن في قلوبهم زيغ، وذكر القرآن ما يعللـون به هذا «الزيغ» من المحكم إلى المتشابه بأنه «تأويله» في حين إنهم يريدون الفتنة.

لقد كان ذلك هو دأب أعداء الإسلام الأولين عنـدما ظهـر، كما كـان هو دأب فريق من الـــذين تركـــوا الطريق الواسع المســـتقيم إلى أزقة ملتوية تحوطها المرتفعـــات والمنخفضات وتنطلق منها روائح الماء الآسن وقد ظهر هؤلاء مع تفشي الملل والنحل في المجتمع الإسلامي في العهد العباسي مع المعتزلة أولاً ثم مع فئات عديـدة أخـرى ختمت بالمستشـرقين في الغـرب والـذين اتبعـوهم في الشـرق الـذين عكفـوا على المتشـابهات وجعلـوا ذلك سـبيلهم في الطعن على الإسـلام، وإثـارة «الفتنـة» عند المحكمات، ونرى أن فيها الكفـاية والمقنع، وإننا أمام المتشابهات نقول «آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَا»، ونكتفي بما وقر في صـدورنا من معـنى لها دون أن نجعل ذلك محـورًا لحديث أو قاعدة لإصدار أحكام.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2266)، بتاريخ 27/8/2010م.

[18]
«قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ»(*)

في آيات عديدة يدعو القرآن الكريم المسلمين للسير في الأرض لينظروا «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ» (الروم : 42)، ولكي يعرفوا «قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (العنكبوت : 20).

في الهدف الأول من هذا السير سيرى المسلمون آثار الشعوب والقبائل السابقة، وآثار الدول الغابرة وماتركوه من «جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ»، «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ».

وهذا درس عملي وواقعي أكثر تأثيرًا ووقعًا من دراسات نظرية، وأشد دلالة على أن طموح بعض الدول تحقيق الخلود والبقاء أبد الدهر والسيطرة على العالم لا يمكن أن تتحقق، ليس فحسب لأن التطور يأبى هذا، ولكن أيضًا لأن قادة هذه الدول من الطغاة والمتجبرين لابد أن تحيق بهم نتائج طغيانهم ويقضى عليهم.

والهدف الثاني من السير في الأرض أن ينظروا كيف خلق الله تعالى هذا الكون وهذه الأرض، وكيف خلق فيها البحار والأنهار وأنبت فيها البذور والأشجار، وأوجد فيها السهول والجبال، وأجرى الرياح، وأسقط الأمطار، إن الذي خلق هذا أول مرة وقبل أن يكون شيئاً، لا يعجزه أن يخلق عالمًا آخر وحياة أخرى أعظم من هذه الحياة.

والهدفان يلتقيان في أنهما يثيرا الفكر ويعملا العقل، وهما ينمان عن الطبيعة المتفتحة للإسلام، الطبيعة «العالمية» سواء كان ذلك بالنسبة للكون كله، أو كان بالنسبة للمجتمع الإنساني والقوانين التي تحكم بوجوده وتقضي بفنائه، وسواء كان في نفس الإنسان أو في قوى الطبيعة ازدهاره وتقدمه، ثم تحلله وتدهوره.

يا لها من دعوة للانطلاق، ومن محاربة للانغلاق أو الانكفاء على النفس، إنها اعتراف بالتطور والحياة المتجددة، واستبعاد للفناء والعدم، إنها الحياة دنيا وآخرة.

إن السير في الأرض ليس إلا الصورة المثمرة للسياحة التي يتجهم لها بعض دعاة الانغلاق، إنها سبيل للتعرف على الحكمة التي قد تكون في أقصى البلاد، إنها دعوة للتعايش، وصورة من صور «العولمة» الرشيدة، وهي تتلاقى وتتفق مع دعوة القرآن «اسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2267)، بتاريخ 28/8/2010م.

[19]
«وَقُولُوا لِلنَّـاسِ حُسْنًا»(*)

هذه جملة من ثلاث كلمات، وهي جزء من الآية 83 من سـورة البقـرة الـتي أدب الله تعـالى بـني إسـرائيل بـآداب التعامل من بر بالوالـدين وإحسـان لـذوي القـربى واليتـامى والمسـاكين.. إلخ، وإنما خصصـنا هـذه الجملة بالحـديث لأنها تمثل لنا إعجـاز القرآن وكيف أنه يجمل في ثلاث كلمات قاعدة عظمى وعامة لكلِ آداب السـلوك في القول، فهي توجه القول للناس، أي الإنسانِ صغيرًا أو كبـيرًا، رجلاً أو امـرأة، أسـود أو أبيض، فكلمة النـاس هنا مثل كلمة «بـني آدم» تضم الجنس البشـري بأسـره، وكيف أبدع القرآن الصياغة في كلمة «حُسْنًا» فهـذه كلمة من الإعجـاز اللغـوي القـرآني، أما إعجازها المعنوي فهو لا يحد لأنها توصي بمبدأ لو اتبع لقامت العلاقات بين النـاس على صــفاء، حــتى لو اختلفت المصــالح، فــإن التلطف في الحــديث يجعل الإنســان يقبل المعارضة أو يتهيأ للنقاش.

والآية تتفق مع آيات عديدة أوردها القرآن عن المعاملة الحسنة مثل «وَلا تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلا السَّـيِّئَةُ ادْفَـعْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ فَـإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَـهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»، ومثل «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَـادِلْهُمْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

وقد يوحى سياق الآية أن تطبيقها أمر سهل، ولكن الواقع خلاف ذلك، فيتطلب أن يعمد كل ذي سـلطان في اللـواذ بالسـلطة ومفرداتها من الأمر والنهي الـذي قد يصل إلى السباب والشتام، يبـدأ ذلك من الـوزير حـتى الخفـير الـذي لا يجد سـلطة إلا على امرأته وكأنهم جميعًا يطبقون قول المتنبي :

من أطاق التماس شيء غلابًا   واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا

فليس هناك السؤال.. ولكن الطلب.

إننا عندما نقول من قلوبنا وبابتسامة «صـباح الخـير»، فـإن هـذا يفتح لنا القلـوب قبل الأبواب.

فهل هناك من صفقة أفضل من هذا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2268)، بتاريخ 29/8/2010م.

[20]
«إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ»(*)

يسن القرآن لأنبيائه مبدءًا هو أن لا يطلبوا أجرًا لقاء دعوتهم، وتكـرر ذلك بشـكل ملفت، وانظر إن شئت :

- «قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ» (الأنعام : 90).
- «وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ» (29).
- «يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْــــرًا إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَـرَنِي أَفَلا تَعْقِلُـونَ» (هود : 51).
- «فَإِنْ تَـوَلَّيْتُمْ فَمَا سَـأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ» (يونس : 72).
- «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» الشعراء : 109).
- تكررت أربع مرات أخرى في سورة الشعراء الآيات 127، 145، 164، 180.
- «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ» (ص : 86).

معلوم أن الأنبياء جميعًا كانوا قبل أن يكلفوا بالرسـالة يعملـون فيما يعمل النـاس من مهن، ولكن لم يحـدث أن واصل أحد منهم حرفته بعد الرسـالة، فالرسـالة تتطلب أن يُنذر حياته كلها لها، ولما كانت من الله، فإن الله تعالى هو الذي يأجره.

وكيف يحدث هذا ؟

نحن نعلم أن السيدة مريم كانت تجد عندها رزقاً، فلما سئلت عنه قالت «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، وليس شرطاً أن يتم هذا للأنبياء، ولكن الحقيقة أن الله تعالى لا يختار أنبياء بطاناً، وإنما من الذين يرون «حسب امرئ لقيمـات يقمن صـلبه»، وقد تكـون تمـرات وشيء من لبن ولـن يعجزهم هذا، على أن الله تعـالى قد يخصص لهم شـيئاً فيما يضع من سياسات مالية.

المهم أن لا يأخذ لقاء الدعوة أجرًا.

وفي هذا حكمة عظيمة.. تلك هي أنه ما إن يدخل المال شيئاً حتى يفسـده، فـإذا دخل السياسة أفسدها، وإذا دخل الدين أفسده أيضًا.

الدعوة لله يجب أن تكون مجردة لله.

ونحن نرى اليوم دعاة مترفين يحملون سبحة تكفي لبناء عمـارة، ويحصـلون على مئـات الألـوف، كما نعلم أن كل سـؤال إنما يحسب بالـدقائق على السـائل لحسـاب البرنامج، وهذه أعمال تجعل من الدعوة تجارة بحيث يختلطا، فلا نعلم أين الـدين وأين التجارة.

فإذا كانوا يدعون إلى سُـنة الرسول، فالرسول منهم براء.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2269)، بتاريخ 30/8/2010م.

[21]
«مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى»(*)

هذه كلمة كل الحكام والملوك والأباطرة لشعوبهم، أنه لا يـريهم إلا ما يـرى، وإلا ما يعتقد أنه سـبيل الرشـاد، ويحسـبون بـذلك أنهم قد أعـزروا إليهم، والقـرآن الكـريم يرفض هذا المنطـق، لأنه يجعل الأمر إلى الحـاكم، ولأنه يجعل الحـاكم إلهًا يحـرم على الناس ويحلل لهم، وهذا ما لا يجوز.

عند الحاكم تتلاقى كل الإغراءات، إغـراءات المـال.. إغـراءات الجنس.. إغـراءات الأمر والنهي والسيطرة والهيمنة، إن قليلاً من أحد هذه الإغراءات يفسد الإنسان، فما بالك إذا كانت كلها تحت خدمة الحاكم وطوعه، وأي سبيل للرشاد يمكن أن يصل إليه.

حتى لو كان الحاكم فيلسوفاً، فلا جدال أنه سيفسد، وقد كان المـأمون هو أقـرب الخلفاء العباسيين إلى الفلسفة، هو الذي أمر بتعـذيب أحمد بن حنبـــــــــــل، وكـان الإمبراطور ماركس أورليوس فيلسوفاً وله كتاب مشـهور عن خـواطره، ومع هـذا قـاد الجيوش لاستئصال المسيحية، فالسلطة تفسد الفلاسفة، بل تفسد الملائكة، وقد كـان الشيطان ملاكاً، ولكنه عندما قال «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» تحول من ملاك إلى شيطان.

لابـد للحاكم أن يحكم بمقتضى دسـتور يتعهـد بالالتزام به ويحترمـه، وعنـدما وُلي أبو بكر قــال إنه يحكمهم بطاعة اللــه، فــإذا عصى الله فلا طاعة لــه، وقــرر المبــدأ الإسلامي الجذري «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» .

وأراد القـرآن للـذين لا يسـتطيعون مقاومة الحكم الظـالم إن يهـاجروا إلى أرض أخــرى حــتى لا يعيشــوا تحت حكم الظلم وإرادة الفــرد «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِــعَةً فَتُهَـاجِرُوا فِيهَا»، فضـلاً عن أنه لا يمكن الحيـاة في ظل حـاكم بـأمره مع بقـاء «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وهي الفريضة المقدسة التي تـوجب مقاومة كل منكر والظلم هو أشد المنكرات نكرًا.

فعبثاً يُقسـم لنا الحكـام، ويـدعون أنهم إنما يريـدون المصـلحة والخـير، وعلينا أن نقول لهم «عفوا لا يمكن أن نصدقكم ونكذب سوابق التاريخ وطبيعة الأشـياء»، وخـير لكم من هذا أن تحكموا بقانون يرتضيه الشعب.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2270)، بتاريخ 31/8/2010م.

[22]
«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ»(*)

إنهم لا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم فحسب، بل هم يفعلون ذلك وهم يتلون الكتاب، وهذا بالطبع ما يضاعف المفارقة، ولكنه عمليًا لا يؤثر كثيرًا لأنها تلاوة على طرف اللسان، فلا قيمة لها، ولو كانت تلاوة واعية لما وقعوا في هذا المأخذ الكبير، لأن المعنى هو أن يأخذ كل فرد أمر نفسه أولاً قبل أن يتصدى للناس، إذا كان له هذا بنوع من حقوق الولاية، كأن يكون أبًا على أبناء قصر ــ فحتى في هذه الحالة ــ فإنها لا تعفيه من المؤاخذة، بل هي تضاعفها لأن المفروض أن يكون بحق الولاية «قدوة»، وقد كان قدوة بالأمر الواقع، ولكن قدوة سيئة.

على كل واحد أن يُحاسب نفسه، وأن يتابع تصرفاته وسلوكه ودوافعه وبواعثه على العمل، وهو أدرى بنفسه، ويصعب أن يخادع نفسه إن استطاع أن يخادع الناس ولو أنه فعل هذا وقاس أعماله بمقياس الواجب الإسلامي لوجد تقصيرًا، إن لم يكن مخالفة، ولانتهى إلى أن عليه أن يفعل هذا قبل أن يلتفت إلى الآخرين، ولو عُني به لما وجد وقتاً للآخرين.

في أحد المناسبات قال الرسول لمعاذ : «يا معاذ أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»، هذا القول الصادر من الرسول الكريم والموجه لمعاذ بن جبل الذي يُعد من خيرة الصحابة يؤكد لنا أن فينا تقصيرًا، إن لم يكن مخالفة، وأن الإسلام وإن لم يعترف بخطيئة أصلية، فإنه جعل الحياة جهادًا ما بين الخير والشر.. الهدى والضلال، وليس هو جهاد معركة تدوم ساعة ثم تنتهي بالانتصار أو الاستشهاد، إنه جهاد غوايات الحياة، واستسلامات الضعف البشري، إنه الجهاد كل يوم وكل ساعة، فكيف يجد من يقوم بهذا وقتاً ليعيب على غيره.

وفي الأصل، أن لا يتصدى للناس إلا لدفع أذى، أما أن يحاول وعظهم وإرشادهم، فإنه نوع من الفضول، وله دلالة نفسية سيئة، فليقف على نفسه خيرًا له.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2271)، بتاريخ 1/9/2010م.

[23]
«بَشَــرٌ مِثْــلُــكُمْ»[*]

في آيـات عديـدة يؤكد القـرآن أن الرسـول بشـر، ثم لا يكتفي بهـذا حـتى يقـول «مِثْـلُـكُمْ»، وبهذا أمر الله الرسول أن يعـرف نفسه «قُـلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُـوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ»، وهي آية جـاءت في سـورة الكهـف، وتكـررت في سـورة فصلت، كما أنه عندما طالبه المشركون بالمعجزات بأن تكون له جنـة، أو يـأت بكتـاب من الله، فإنه أمر بأن يقول «سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً».

بشرية الرسول أمر مقرر ومؤكد في الإسلام، والإسلام يريد بهذا أمرين، أولهما : أن ينفي أي قداسة حتى بالنسبة للرسـول، لأن الرسـول ليس إلا بشـرًا اصـطفاه الله دون الناس، وهذا وإن كـان فضـلاً كبـيرًا ومنة عظمى، فإنه لا يخرجه من عـالم البشر فهو يأكل ويشرب ويقوم وينام ويقـرب النسـاء ويحب الطيبـات ويكـره الخبـائث، وهي كلها أمـور تنفي أن يكـون للرسـول قداسة اسـتثنائية دون النـاس، خاصة بعد أن أكد القرآن «مِثْـلُـكُمْ» التي تنطبق ليس فحسب على شخصـية الرسـول، بل وأيضًـا على ما يصـطحب به مما يمكن أن يمـيزه دون النـاس ولا يجعله مثلهم كتخصـيص حـرس، والعيش في قصـر، ولبس الـذهب والفضـة.. إلخ، وأداء تحية خاصة به يمكن أن تصل إلى السجود.

وأما الأمر الثاني : فهو أن هذا النبي الكريم «رسول» ميزته وخصيصته الـتي تملأ حياته، أنه رسول يحمل رسالة الله إلى الناس، ويأمر الناس بالالتزام بهـا، ويكـون هو أول الملتزمين، ولا يكون من حقه أن يغير من هـذه الرسـالة حرفـاً، أو يزيد أو ينقص، لأنه ليس له من الأمر شيء في هذا، إنما هو مبلغ.. بشير.. نذير.. وهذا درس هـام في دروس القيادة، وفي الفصل ما بين الذاتي والموضـوعي، وإبعـاد الـذات عن الموضـوع والحرص على سلامة الرسالة، والرسالة في الـدين مثل الدسـتور في السياسـة، وكما أن مهمة الحاكم الأمين هي الحـرص على الدسـتور وتطبيقه والالـتزام بـه، فـأحرى أن يكون الأمر كذلك بالنسـبة للأنبيـاء الـذي تفضل رسـالتهم، أي دسـتور، لأنها جـاءت من الله.

ولا يمس هذا أن يكون الرسول متميزًا في خلائقـه، لأن الله تعـالى إنما يصـطفي الأكثر قربًا إلى الكمال، لهذا أمر القرآن المؤمنين بألا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وأن لا يخالفوا أمره، فما أرسل الله الرسل ليخالفوا، ولكن ليطاعوا.

وهذه كلها دروس ثمينة في فن قيادة الجماهير أو بالتعبير الديني هداية الناس.

---

[*] نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2272)، بتاريخ 2/9/2010م.

[24]
«وَنَبْلُوكُمْ بِـالشَّــرِّ وَالْخَيْـرِ فِتْنَــةً»(*)

يستخدم القرآن الكريم تعبير «البـــــــلاء» ومشـتقاته بمعـنى الاختبـار والموقف من الخير والشر، بهذا المعنى يمكن فهم كلمة «الخير» هنا، على أن هناك تعريفاً آخر ذلك أن القرآن يعني بكلمة الخير في مواضع معينة المال والـثروة كما في قوله «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ»، فلم يعرف عن الإنسان النمطي أنه يحب الخـير حبًا جمًا شـديدًا، وأعتقد أن المعنى في الآية التي نحن بصددها هو «الثراء»، وأن المعنى بالشر الفاقة.

فمن البلاء أن لا يجد الرجل الفقير «ثلاجة» ستة أقـدام يحفظ بها طعامه حـتى لا يحمض ويشرب منها قدحًا من الماء البارد عندما يشتد الحر يكون هذا من البلاء.

ومن البلاء أن يكــون لفـــرد ثلاجة 24 قـــدمًا تمتلأ بـــأنواع مختلفة من الحلـــوى والشـيكولاته والمشـروبات على أنواعها والفواكه على اختلافهـا، إنه بلاء حقيقي فـإذا سمح صاحبها لنفسـه بالاستمتاع بها فسيصاب بالبطنة، وكما أن هناك أمراضًا تنشأ عن الجوع، فهناك أمراض تنشأ عن الإفراط في الأكل، وعندما يريد صاحب هذه الثلاجة أن يقاوم شهيته المنفتحة، فهذا بلاء، وإذا استسلم لها، فهذا بلاء آخر.

من هنا نعرف أن البلاء لا يقتصر ــ كما يتصور الفقراء ـــ على الفاقة وضـرورياتها المؤلمـــــة، ولكنه أيضًا يمتد إلى الثروة والترف والاستمتاع.

وإنما يُعد هـذا وذاك نوعًا من البلاء، لأنه قصر في ناحيـة، وبـالغ في ناحية أخـرى، فابتعدا عن «القصـــد» أو «الوسط» أو «الاعتدال» الذي يُعد الموقف الأمثل.

المشـكلة أن لا أحـد يريد هـذا الوسـط، فالفقيـر يسـعى لأن يكـون غنيًـا، والغـني يسعى لأن يكون أكثر غنى، ولا يعلمون أن هذا يعرضـهما للبلاء الشـديد، ولو أنهما قنعا بالوســط، لما أصــبح أســيرًا في قبضة الفاقة المذلــة، أو غريقـــاً في بحر اللـــذات، ولاستطاع ــ وقد خلص من البلاء ــ أن يوجه جهده للخير، والآخرة، وللوطن، وللناس.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2273)، بتاريخ 3/9/2010م.

[25]
«إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا»(*)

في لحظة نادرة لا تتكرر اعترفت ملكة سبأ القـديرة بما يفعله الملـوك إذا دخلـوا قرية «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

كانت سبأ تعبد الشمس مع قومها، ولكنها كانت ملكة شـجاعة، وأعظم الشـجاعة المجاهرة بالحق، فقالت قولتها تلك مع أنها ملكة يسري عليها ما يسري على الملـوك، وكافأها القرآن على شجاعتها، فالتمس لها عذرًا «وَصَدَّهَا مَا كَـانَتْ تَعْبُـدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ»، وإنما قال القرآن هـذا لأنها سـتؤمن بالله عنـدما تتعـرف عليه.

ثمة مفارقة توضح لنا مدى التعقيد الاجتمـاعي الـذي يمكن أن يـذهب من النقيض إلى النقيض.

فهنا ملكة تقول «إِنَّ الْمُلُـوكَ إِذَا دَخَلُـوا قَرْيَـةً أَفْسَـدُوهَا وَجَعَلُـوا أَعِـزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

وفي اليهود قوم يريدون ــ بجدع الأنف ــ أن يكون لهم ملك.

وفي عهد أفضل هؤلاء القضاة وهو صموئيل أصر اليهود أن يكون لهم ملك.

وفي سفر القضاة عنـدما ضـاق صـموئيل بمطلبهم هـذا ابتهل إلى الله أن يهديـه، أجابه الله «اسمع لكلام الشعب في جميع ما يقولون لـك، لأنهم لم يرفضـوك أنت، بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم، ولكن أشـهدهم وأخـبرهم بوسـائل الملك الـذي يملك عليهم حتى إذا ما أثقل عليهم لا يلوموا إلا أنفسهم».

فجمعهم صموئيل وقال لهم هذا هو ما سيفعله الملك إذا حكمكم، سيأخذ أبنـاءكم ليستعبدهم في أعماله، وليسعون بين يدي عرباتـه، وسـيعين بعضـهم قـــادة ليكونـوا ضباطاً في جيشه، وآخـرين ليكـدحوا في حقوله ومزارعـه، وآخـرين لإعـــداد عرباته وأسلحته، وسيأخذ بناتكم ليكن وصائف وخادمات وخبـــازات وطباخات، وسيأخذ أفضل حقـولكم وأشـجار الزيتـون والأعنـاب، وسـيأخذ العشـــر من الحبـوب ليعطيها لأتباعه وسيأخذ أفضل ماشيتكم، وسيثقل كواهلكم بالضرائب وأنتم تكونون عبيـــدًا له.

فـأبى الشـعب أن يسـمع لهـذا التحـذير، وقـالوا بإلحـاح كلا، بل يملك علينا ملك كسـائر الأمـم، يقضي بيننا، ويخرج أمامنا، ويحارب حروبنا.

فلما رأى إصرارهم اختار لهم شاول ملكاً.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2274)، بتاريخ 4/9/2010م.

[26]
«مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ»(*)

هذه المقولة التي رددها المشركون قـديمًا وهي في العصر الحـديث ما يـؤمن به عامة النــاس وخاصــتهم في المجتمعــات الحديثة ـــ في أوروبا وأمريكا ـــ وهم إما يصـدعون بها جهـرة، أو أنها ما تكن في نفوسـهم الـتي اسـتبعدت بصـفة عامة عـالم الغيبيات من حياتها، وقد كان ذلك سـببًا لأن يؤلف جمـال الـدين الأفغـاني رسـالته ضد «الدهريين»، وبدأها «نسمع صيحة تتردد نيتشر.. نيتشر»، أي الطبيعة.. الطبيعـة، بينما اعتبرها بعض المفكرين جزءًا من «العلمانيـة» وهو الاتجـاه الـذي جعل الأسـتاذ عـادل حسين يطلق على العلمانية تعبير «الدنيوية».

لقد قلنا في إحدى المناسـبات أن الإيمـان بـاليوم الآخر هو أعصى ما في الأديـان استيعابًا لدى الأوروبيين، فهم قد يؤمنـون ـــ بطريقة ما ـــ بوجـود الله ولكنهم لا يمكن أن يسيغوا فكـرة بعث الأجسـاد من القبـــور، وما يتلو ذلك من حسـاب أو عقــاب في جنـة أو نار.

وقد وقف فلاسفتهم إزاء ذلك فلم يفندوا أو يؤيدوا لأن علمهم منعهم من التفنيـد، فليس في العلم ما يرفض وجود عالم آخر، وفي الوقت نفسه جعلهم الهوى يرفضــون الإيمان، وفي النهاية وجدوا في الطبيعة بدلاً، فعادوا إليها، وظلوا عليها.

ولم يكن هذا موقفنا قدر ما كان فـرارًا من المشـكلة، لأن الطبيعة إذا لم يكن لها عقل أو إرادة، فكيف يتسنى لها أن تبدع هذا الإبداع في إحكام المخلوقات الــتي تعمل وتسير بكل دقة ؟ وإذا كان لها عقل فإن الطبيعة تصبح تسمية فجة للإلـه.

ولو أن مفكـريهم سـاروا إلى النهاية المنطقية لوجـدوا أن كمـال العدالـة، وهو ما يقتضيه الكمال الفلسفي، يوجب إقامة محكمة تستدرك نقص العدالة في الحياة الـدنيا لندرة المـوارد وفسـاد النظم، وتـتيح للملايين المجهولة الـتي أمضت حياتها في الكـدح والعناء، والتي تحقق بفضل عرقها قيام المؤسسات دون أن تـذوق سـاعة سـعادة، أن تكافأ بجنة عرضها السـموات والأرض، وفيها ما لا تتصـور، لأن قـدرة الله لا تحـد، وفي الوقت نفسه تحكم على الطغاة والحكام الذين استبدوا بشـعوبهم وأثقلوها بالضـرائب وعذبوها بالقيود، ثم ماتوا فشيعت جنازاتهم في احتفـالات مدوية وأفلتـوا من العقـاب، إن من تمام العدالة أن يعاقبوا في جحيم النار.

ولكن هذا كان عسيرًا حـتى على الفلاسـفة، فما بالك بعامة النـاس ؟ وهكـذا ظل الجميع يرددون «مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2275)، بتاريخ 5/9/2010م.

[27]
«فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ»(*)

كان الرسـول في معاهـدة الحديبية قد عاهد الكفـار على أن من هـاجر إليه منهم يعيده إليهم وقبل أن يجف القلم، جاء أحدهم، فقال ممثل قريش هذا أول العهد، فقال الرجل أتسلمونني إلى الكفار، فقال الرسول إننا قد عهدنا عهدًا وعلينا الوفاء وسيجعل الله لك فرجًا، وبعد أن عاد الرسول إلى المدينة هاجرت إحدى النساء المؤمنـات إليـه، فذهب زوجها إلى المدينة يطلبها من الرسول وفاءً للعهـد، فـرفض الرسـول لأن العهد كان للرجال المحاربين وليس للنساء العزل، ولأنه قد نزل في ذلك قرآن صريح يوجب امتحانهن فإذا اتضح له صدق إيمانهن أبقاهن في المدينة ورفض إرجاعهن.

نقول هذا لأن الأنباء وافتنا بأن بعضهم قد أفتى بجواز تسليم السيدة كاميليا زوجة أحـــــد الكهنة للكنيسة بعد إسلامها على أسـاس عهد الحديبيـة، ورمى الـذين أنكـروا عليه بالجهل (صوت الأمة 25 رمضان 4/9/2010م) وبـأن عليهم أن يدرسـوا الموقف وفي أي مكان وينظروا إلى الواقـــع المحيط، فيه حاجة اســمها سياسة ومواءمة.

نقول إن من الجميل أن يوجه المفتي نظر الآخـرين إلى المواءمـة، وأن يلحظ ما ذكـره ابن القيم من قبل الفتـوى بـاختلاف الأمكنة والأزمنـة، ولكن هـذا لا ينطبق على حالتنا هذه لأن هناك نصًا صريحًا من القرآن يقضي بعدم إرجاعهن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـاتٍ فَلا تَرْجِعُـــوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِـــلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ»، ولأن المعـــنى بعهد الحديبية هم الرجـال المحـاربون، وليس النسـاء المستسـلمات، ولأن الآيـات القرآنية تطلق حرية الاعتقاد ولا تضع عليها قيدًا أو شرطاً مثل «وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»، و «لا إِكْرَاهَ فِي الـدِّينِ»، وهـذه آيـات صـريحة تسـتبعد أي ضغط أو إكراه أو شرط يفسد هذه الحرية، وأخيرًا فإن الإسلام سـبق الإعلان العـالمي لحقوق الإنسان عندما أعلن في المادة 16 حرية المعتقد، ذلك أن حرية الاعتقـاد قيمة عظمى وجزءًا لا يتجزأ من حرية الفكر التي هي أساس تقدم المجتمع البشري.

ولا يجوز لأي اعتبارات من مواءمة أو سياسة أن تحيف عليها وهل كلام الشـيخ إلا مثل ما تورده بعض مواد القانون التي تبيح أمرًا ثم تستدرك بشـتى صـور التحيـف، بل هو أسوأ لأنه ينص صراحة بتسليمها للكنيسة، الأمر الذي يعني إجبارها على المسيحية، دع عنك أن وجـود هيئة لها حق التحكم في الأفـراد أمر يفـترض أن لا توجد أصـلاً، وأنه يهدد بوجود دولة داخل الدولة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2276)، بتاريخ 6/9/2010م.

[28]

«قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ»(*)

يعرض القرآن الكريم هنا مبدءًا من المبادئ المؤكدة والتي ذكرها بصيغ مختلفة ومتقاربة حتى يكون مضمونها شاملاً مثل «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (البقرة : 134)، التي كررها في الآية 141 من سورة البقرة، كما يكرر المعنى بصورة فردية «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، «وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (فاطر : 18)، و«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (العنكبوت : 12).

وقد جاء التعبير هنا صريحًا غاية في الصراحة فافترض أيها المخالف أننا نعمل الإجرام، فإن كان الأمر كذلك فلست مسئولاً أمام الله عن إجرامنا.

وفيما يبدو، كان في مجتمع المدينة عزوف عن «السؤال» بصورة عامة، وسواء كان السؤال للتعرف على حكم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» (المائدة : 101)، أو لطلب شيء، وقد عاهد الرسول فكان في العهد «وأن لا تسألوا الناس شيئًا»، فكان الرجل إذا سقط سوطه من يده وهو راكب ناقته فإنه ينزل ليأخذه ويرفض أن يسأل أحدًا أن يناوله.

وهذا جانب من أدب رفيع، وهو يلزم النفس الكتمان ويبعدها عن الثرثرة وكثرة الحديث وإضاعة الوقت في قيل وقال، وهو بالطبع يحرم كل صور الوشاية والنميمة، وهي أمور قد تثقل على الناس أو لا تكون محل عنايتهم، ومع هذا فما أحوجنا إليها في عالم الفضول والإشاعة التي هي مادة الحديث عند بعض الناس، كما هي مادة صفحات بأسرها من الصحف والمجلات، وما أبعدها عما يعمد إليه بعضهم عندما يسأل الآخر عن مورده.. وأولاده.. وسكنه.. وعمله.. وفيم يقضي وقته.. أو كيف ينفق ماله، دون أن يلحظ ما في ذلك من إحراج، ومن إضاعة وقت قد يكون رخيصًا عند صاحبه ولكنه غالي عند من يخاطبه.

كانت نصيحة الرسول لبعض أصحابه «امسك عليك لسانك» ولما عجب الصحابة، قال الرسول «وهل يكف الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم».

ومن مادة «السؤال» جاءت المسئولية، وجاءت الآية «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2277)، بتاريخ 7/9/2010م.

[29]
«وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»(*)

في سـورة تنبض بالعاطفة يضـفي القـرآن على الرسـول الكـريم بعض آلاء الله تعالى ويواسيه مواساة رقيقة ويـذكره بأنه وضع عنه ما يثقل على الداعية حـتى ينقض الظهر ويمن عليه «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»، وأي كرامة ورفعة وخلود مثل أن يـتردد اسـمه خمس مـرات على الأقل في كل أذان وفي كل دول العـالم، بعد شـهادة أن لا إله إلى الله، ويبشـره أن بعد العسر يسـرًا، فلا يثنيــه شـيء عن ذكر الله أن يمضي قـدمًا في دعوته.

فهل يمكن لأي إمبراطور روماني أو شاه إيـراني أو ملك مصـري أن يـذكر اسـمه كل يـوم خمس مـرات على الأقل في كل دول الـدنيا وبمختلف لغاتهـا، وأن يظل هـذا دون صدور أوامر أو إلزام قانون، ولا يتغير بتغير السياسات.

هذه السورة الوجيزة، ومثلها سورة الضـحى وفيها يـذكر الله تعـالى الرسـول أنه كان يَتِيمًا فَآوَى.. وَضَالاًّ فَهَدَى.. وَعَائِلاً فَـأَغْنَى، وما أعظم « مَا وَدَّعَـكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِـرَةُ خَيْـرٌ لَـكَ مِنْ الأُولَى * وَلَسَـوْفَ يُعْطِيـكَ رَبُّكَ فَتَرْضَـى»، هي أثمن وأعظم ما يقلد إنسان من كرم ورعاية والسورتان صيغتا في عبارات آخاذة.

قالت إحـدى السـيدات الـتي كـانت من أغـنى الأسر اليهودية في بريطانيا وأحبت لاعب هـوكي باكسـتاني فأسـلمت وتزوجتــه، إنها بكت عنــدما قــرأت ترجمة سـورة الضحى، فماذا كانت تفعل لو قرأت الأصل.

إن هذه السـور تفهم أفضل ما تفهم عنـدما يقرأها القـارئ دون أن يعـود إلى أحد التفاسير التي تفسد عليه روعتها وأصالتها بما تلوثه من إدعـاءات، بل حـتى لو لم تكن تلك اللوثات، فإن أي محاولة لتفسيرها لابد أن تفقـدها تماسـكها وسـياقها وهارمونيتها الموسـيقية العاطفيـة، من أجل ذلك قـال الله «وَرَتِّلْ الْقُـرْآنَ تَـرْتِيلاً»، وفي كل مـرة يزداد أثر هذه السورة وتتغلغل معانيها ويستشعر المسـلمون الشـكر لله على ما آفـاء على رسوله، وغبطة الرسول على المقام المحمود الذي ظفر به.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2278)، بتاريخ 8/9/2010م.

[30]
« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»(*)

كانت قضية الخير والشر من القضايا التي حيرت الفكر البشري من أقدم العصور حتى لقد تصور البعض وجود إلهين : إلـــه للخـير.. وإلــه للشـر، تسـليمًا منهم بوجـود الشر وجهلاً لمبرر هذا الوجود، إلا أن يكون إلهًا.

الأمر أهون من ذلك، فقد كـان لابد من وجـود الشر ليظهر الخـير، لابد من وجـود الشـيطان ليظهر الملاك، وقد تنبه إلى ذلك المتنـبي عنـدما قـال في «فلتـة» عبقرية «وبضدها تتبين الأشياء»، فالأسود لا يظهر إلا بالأبيض، والليــل لابد أن يعقبه النهار، ولا يعرف الطويل إلا بوجود القصير.. إلخ.

ولكن يبـدو أن الجمـاهير لا تقنع بهذ المنطق الجـدلي، وهي تريد للشر كيانـاً ذاتيًا مستقلاً، ولكي يحقق لهم الله هذا، قدم «الشيطان» الذي يتبلور فيه الشر.

والقـرآن الكـريم في كل أمر من أمـور الغيب يقـدم صـورة مجازية ليمكن للعقل البشري ــ عقل الكرة الأرضية ــ أن يستوعب كيانات وكواكب أكــبر من الأرض ولا حد لهــا، فالشــيطان أولاً كــان ملكــاً من الملائكة وتمــرد على الإرادة الإلهية عنــدما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأبى متذرعًا بأنه أفضل منه، «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»، وعلى هذا فنحن لا نستطيع أن نقبض بأيدينا على الشـيطان سـواءً في حالته الملائكية الأولى ولا في الحالة الـتي جعلته «الشـيطان» عنـدما تمـرد على الإرادة الإلهية وعنـــدما تملكته الأثـــرة والأنانية والظن أنه يعلم كل شـــيء وهـــذه هي مداخل الانحراف الذي يؤدي إلى الضلال، «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَـادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِـينَ» حـتى ينتهي النهاية الـتي أرادها أن يحتنك ذرية بـني آدم، وأن يجلب عليهم بخيله وَرَجِلِـهِ وأن يعـدهم، وأن يشـاركهم في الأمـوال والأولاد، باختصـار لا يـدع سـبيلاً للغواية إلا سـلكها، وقد أمهله الله إلى يـوم القيامـة، وهو ما يتفق مع المجتمع البشري كما يتفق مع ما أراده الله تعالى من محاسبة في الدنيا ومحاسبة في الآخرة.

قضية وجود الشيطان، أو لنقل الشر قضـية محسـومة بالصـورة الـتي عرضـناها، والقضية هي ليست في وجود الشـيطان وغوايته الـتي لا حد لهـا، وبقـاء ذلك إلى يـوم القيامة، ولكن القضية التي أكدها القرآن مرارًا وتكرارًا، أن الشيطان على هـذه القـوة الفائقة لا ســلطان له على المؤمـنين، لأن الإيمــان يعطيهم قـدرًا من الحصــانة ضد إغوائه، ولكن الشيطان لا يعدم فرائسه ممن يهن فيهم الإيمان وتعظم الشهوة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2279)، بتاريخ 9/9/2010م.

المجموعة الثالثة

إلهامات قرآنيـة

نشرت بجريدة «المصري اليوم»

رمضـان سنة 2341هـ

أغسطس سنة 1102م

[1]
«الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ»(*)

في كثير من الحالات ــ إن لم يكن في معظم الحالات ــ تستأثر الشهوات بنفس صاحبها، فهو لا يحبها حبًا مقتصدًا بحكم الطبع البشري، ولكنه يهيم بها ويسير في آثارها ويسلك مسالكها حتى يتراكم لديه الشيء الكثير وكلما زادت ثروته كلما تفتحت شهيته للمزيد حتى لقد تبلغ أقصاها في آخر دقيقة من حياته قبل الموت.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا أجمل تعبير فقال «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ».

فتأمل تعبير القرآن «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ»، وكيف أنها تبلغ من النفس ما لا يبلغه تعبير آخر، وقد يتصور أحد أن القرآن عندما استخدم تعبير «وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»، خاصة إذا كان صاحبنا من بيئة فقيرة لا يمكن أن يذهب خيالها إلى الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ، ولكن الحقيقة غير ذلك، فقد تجاوز الثروة المليون إلى المليار والمليار إلى التريليون حتى تبلغ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ، بل قرأنا عن عبد الرحمن بن عوف الذي ترك ذهبًا يكسر بالفؤوس.

لماذا هذا كله، والحياة محدودة، ولا يستطيع واحد أن يكون له أفواه متعددة يأكل منها ويلتذ بطعمها، ولا أجسام متعددة يضع عليها ملابسه وزينته.

ورحم الله المتنبي :

يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طِبِّه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سِرْبه

والإنسان لا يمكن أن يبلغ هذا المبلغ من الثروة إلا إذا أعطاها عمره وأفنى في سبيلها حياته، فأي فائدة ترجى بعد أن أفنى حياته في سبيلها، وجعل من نفسه الوسيلة إليها.

وإذا كان الولع بالمال قد جعل الناس يختصرون من وقت أكلهم فلجأ إلى «ساندويتش» يأكله واقفاً عن أن يجلس إلى مائدة حافلة، لأن الأول سيوفر له وقتاً يزيد من ثروته، فما فائدة ثروته إذا كان قد فقد نفسه، وما فائدة التكاثر وقد دنى الأجل.

أسئلة معقولة.. ولكنها لا تقف أمام إغراء المال، وإغراء الثروة، وإغراء «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ».

كان لابد للقرآن أن يستخدم تعبير «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ» لأنه كان يستشف في المستقبل البعيد عهدًا تفوق ثروات بعض الآحاد ثروات دولة كاملة وتتجاوز الألوف إلى الملايين، والملايين إلى المليارات، ومن المليارات إلى ألوف المليارات مما يعجز الخيال عن تصوره، ومما لا يمكن أن يتأتى إلا إذا أضيف إلى عنصر العمل والكد.. السرقة والخداع.. والتزييف والتزوير.. وكله يهون في سبيل المال.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2605)، بتاريخ 1/8/2011م.

[2]
«وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى»(*)

هذا مبدأ من أخطر وأشمل المبادئ أن الإنسان لا يكون له إلا ما عمـل له، أما إن جـاءه من الحظ واليانصـيب، أو جـاءه بـالميراث، أو لقيه في الطريق فإنـه لا يُعد في عـداد المال الذي يأتي به العمــل، وتعبـير «مَا سَـعَى» أكـثر دلالة من العمل لأنه يـدل على مواصلة السير في سبيل العمل.

إن الآية تقــرر أن العمل هو أصل القيمــة، وأنه بقــدر ما يعمل الإنســان بقــدر ما يحصل على عائد، وبقدر ما يزرع بقدر ما يحصد، والعمل بهذه الطريقة له لذة ومعنى، وهو الذي يأتي بالثمرة.

قد يكون من الصعب أن نتصور عالمًا لا يلبس رجاله ونساؤه إلا زيًا واحــدًا كـأنهم في إحــرام الحج، ولا يتجــرأ واحد على الآخر وينطلق و« يَسْــعَى» كل واحد لعمله ثم يأتون آخر النهار وقد أمضوا الساعات المقررة في العمــل، فيحاسب كل واحد على ما قدمته يداه.

في هذا المجتمع قد يسـبق النحيف السـمين، وقد يغلب القـوي الضـعيف، وهكـذا نرى أول «تمييز» قامت به الطبيعة، ووضعت أفرادًا فوق أفراد آخرين.

وهذا التمييز هو ما يمكن أن يعود إلى عوامل ذاتية معينة سـواء صـحة البــــــدن أو قوة الإرادة، وسـتبرز المســــاواة عند البداية المتمـيزون بفضل العمـل، ويُعد هـذا التمييز عدلاً.

ولو سرنا مع هذا العرض إلى النهاية، لكان من الممكن أن نصدر صـكوك عمليـة، نسبة إلى العمل.

في الأيام الأولى للثورة الصناعية حـاول «أويــــن» وزملاؤه إصـدار صـكوك عمل فهناك صك بعمل سـاعة، وهنـاك صك بعشـرة، وكأنما تطبق الآية «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَـانِ إِلاَّ مَا سَعَى»، ولكن التجربة فشلت بـالطبع، وكـان هنـاك متـاجر ومصـانع تطبق هـذه الصكوك وتبيع سلعها طبقاً للأساس المتفق عليه للقيمة التي تكونها ساعة عمل.

إن المجتمع البشري أشد تعقيدًا مما تصوره «أوين» وأصـحابه، إنه تعبـير عما في النفس الإنسانية من فجور وتقـوى، إن أبوابه مفتوحة يـدخلها البـار والفـاجر.. الصـادق والكاذب، كما أن جنباته تتسع لكل ما يتفتق عن ذكـاء البشر من وسـائل للتحايـل، كما أن «يسـعى» يمكن أن تتقبل ظهــور رجــال أعمــال يملك كل واحد منهم عشــرات الملايين، بل بمئات الملايين، ولكن هذا لا يكون سعيًا لعمل ولكن اقتناصًا للأمـوال بكل الوسائل من خداع أو نفاق أو كذب وتزييف.

ولكن يبقى بعد هذا «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَـعَى» شـعارًا يفخر به الكثـيرون، ويرون فيه العدل والصدق والحقيقة، لأن الله هو الذي قاله وهو من سـوف يحققه في يوم الحساب.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2606)، بتاريخ 2/8/2011م.

[3]
«ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ»[*]

كانت عادة التبني موجودة في العالم القديم، وبمقتضاها كان يمكن لأي فرد أن يعلن تبنيه لصبي أو فتاة، مع العلم بأنه ليس من صلبه، ولكنه وجد من ظروف الحياة ما يسمح، بل ما يوجب هذا، هناك الفتى اليتيم الذي فقد أمه وآباه فأصبح الضياع يهدده، ولا يمكن إلحاقه بعمل، بل لا يمكن إلحاقه بمدرسة تشترط عند قبول الطالب أن يكون له «ولي أمر»، ومن ناحية أخرى نجد شيخًا تقدم به العمر ولم يوهب بولد أو ببنت، فأصبح وحيدًا وأصبح يخشى على ثروته وميراثه من الضياع، ولو أنه تبنى ولدًا نابهًا ذكيًا لأراح واستراح ولحل مشكلة إرثه واسمه بإجراء واحد.

ومعروف أن الرسول في الأيام الأولى للدعوة تبنى زيد ابن حارثة، وكان زيد قد اختطف من والديه في إحدى الغارات التي قامت بين القبائل العربية وباعوه للسيدة خديجة التي وهبته للنبي، وبعد فترة طويلة عرف أبوه بأمره، فجاء ومعه إخوانه للرسول وطالبوا به النبي، وترك النبي الأمر لزيد نفسه ففضل البقاء مع الرسول، وأكبر أبويه الأمر وحاولوا دفعه الذهاب مع أبيه، ولكنه تمسك، وأكبر الرسول هذا الوفاء، فأعلن تبنيه له ورضي والده وسافر مطمئناً إلى أن ابنه أصبح ابناً لمحمد، وظل زيد يطلق عليه ابن محمد حتى أنزل الله تعالى تحريم التبني.

انتقد أناس كثيرون تحريم الإسلام للتبني، ولم يروا في التبني غضاضة أو ضير مادام الفريقان يريدونه، ولكني أعتقد أن الإسلام كان لابد أن يحرمه لأنه مخالفة صريحة للحقيقة، وكذب يراد له أن يكون مشروعًا، وهذا أمر يرفضه الإسلام، فالإسلام يريد الحقيقة «ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

إن القرآن يعلمنا دائمًا أن الأمر ليس بالأماني.. ولكن الحقيقة.

وواضح بالطبع أن إلغاء التبني لا يمنع من أن يتولى رجل ما ابناً يعلمه كما لو كان ابنه ويعامله كذلك، ولكنه لا يغالط الحقيقة في الاسم فليحمل اسم أبيه «فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2607)، بتاريخ 3/8/2011م.

[4]
«وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ»(*)

قرأت تعليقات وتفسيرات عديـدة لهـذه الجملة كـان فيها اجتهـاد وإبـداع، ولكـني أحسست في نفسي معـنى آخر للآيـة، معـنى يلمس جروحًا لم تنـدمل بعـد، إن منظر البئر المعطلة مع أنها هي التي يُستسقى منه المـاء والكهربـاء وري الأرض وغيرها مما لا تبقى الحياة إلا بها ولكنه معطل، في حين ينتصب إلى جانبه قصر مشيد، أفلا يــوحي جمع هذين بشيء من الخلل في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي للدولة، فكيف جاز أن يخرب ويعطل البئر الذي على مائه يعيش النـاس، وبجانبه قصر ممـرد لا يسـكنه أحـد، لأن مالكه لديه من القصور ما يمكنه أن يسكن فيها قبل أن يحتاج إلى هذا القصر، أفلا نرى صورة لهذه الآية في حياتنـا، ألا نـرى المسـاكن العشـوائية الـتي لا يصـلها إلا مـاء المصارف، ولا تنيرها الكهرباء، وتعصف الريـاح بما صـنعت من ورق كرتـون أو صـفيح، وتجد الأطفال لا يرتعـون ويلعبـــــون ويضـحكون ولكن يجلسـون سـاهمين واجمين خائفين من عدو مجهـول، ومع أنهم لا يكـادون يجـدون ما يسد الرمـق، فعلى خطـوات منهم يقف القصر ممـردًا مشـيدًا، داخله كل شـيء، وفي ثلاجاته الأنـواع المختلفة من اللحـــــــوم، ويضم مولدًا للكهرباء وآخر للمياه، ولا ينقصه إلا من يعيش فيه.

عندما زرت لندن كان أبرز ما لفت اهتمامي منظر البيوت، إنها صفوف من بيـوت لا يختلف واحد منها عن الآخر، ولها طريقة واحدة في البناء، فكل منها له حديقة خلفية صغيرة، والأدوار ثلاثـة، ولا يمكن التميـيز بين الـبيوت إلا بالأرقـام، وقد بـدا لي المنظر مملاً ولكنه يحقق العدالة والمساواة، فمن حق كل واحد أن يأمل في مثل هـذا الـبيت ولكن لا يخطر بباله أن يبني قصرًا مشيدًا خاصة إذا كانت البئر معطلة.

إن يـد العدل عندما تعمل في المجتمع فإنها تزيل كل صور التفارق وتشـيع حاسة المساواة بحيث لا يقع المجتمع في مثل هذه المفارقات الـتي تقع فيها الـدول الناميـة، والتي انتقدها القرآن عندما تحدث عن البئر المعطلة والقصر المشيد.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2608)، بتاريخ 4/8/2011م.

[5]
«وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ»(*)

«الالـتزام» كلمة تمثل أعظم تمثيل ما يجب أن تكـون عليه العلاقة بين الإنسـان والإسلام.

وفي الحديث المشهور «إذا نهيتكم عن أمر فلا تأتوه وإذا أمرتكم بـأمر فـأتوا منه ما استطعتم»، فـبين أن الالـتزام السـلبي قد يكـون أعظم من الالـتزام الإيجـابي لأنه يمثل شـرًا مكفوفـاً.. وهو أهم من أن يكـون مغنمًا مطلوبًـا، ولم يكن عبثـاً أن تـأتي معظم الأوامر الإلهية بصيغة النهي ولعله كان الأصل في المبدأ التشريعي لمنع المضار مقدم على جلب المنافع.

وفي هذه الآية «وَتَحْسَـبُونَهُ هَيِّنـاً وَهُـوَ عِنْـدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» انتقد القـرآن على فريق من المسـلمين أبـاحوا لأنفسـهم النيل من إخـوانهم دون سـند أو دليـل، إلا دعـاوى وأقاويل، وأنهم في عملهم هذا لا يستشـعرون مـدى ما فيه من مخالفة لآداب الإسـلام وبُعد عن الالـتزام بهـا، وقد جـاء في وسط آيـات تعلم أفضل تعليم ما يجب أن يكـون عليه المؤمن عندما يترامى إليه شيء يمس أخاه فعليه أن يرفضـها وأن يأخذ أمر أخيه على أحسـنه وأن يسـتبعد كل شـائعة أو اتهـام «لَـوْلا إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ»، ووضح لهم «وَلَـوْلا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ لَمَسَّـكُمْ فِي مَا أَفَضْـتُمْ فِيـهِ عَـذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَـهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُـوَ عِنْـدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ».

فإذا أضيف إلى ذلك آيات سورة الحجرات «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْـخَرْ قَـومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَـى أَنْ يَكُونُـوا خَيْـراً مِنْهُمْ وَلا نِسَـاءٌ مِنْ نِسَـاءٍ عَسَـى أَنْ يَكُنَّ خَيْـراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَـكُمْ وَلا تَنَـابَزُوا بِالأَلْقَـابِ بِئْسَ الاِسْـمُ الْفُسُـوقُ بَعْـدَ الإِيمَـانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اجْتَنِبُـوا كَثِـيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُـلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتـاً فَكَرِهْتُمُـوهُ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَـوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

نقول إذا أضيفت هـذه الآيـات بعضـها إلى بعض لوجـدنا لـدينا وجبـة من الإتيكيت الإسلامي تصلح حال الأفـــــــراد.. والجماعات أيضًا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2609)، بتاريخ 5/8/2011م.

[6]
«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»(*)

هذا جزء من الآية 9 من سورة الحجرات، وفي يوم ما ألهمتني هذه الآية أن أكتب رسالة صغيرة باسم «محكمة السلام الإسلامية الدولية» أو «محكمة الآية 9 من سورة الحجرات».

لقد وجـدت فيها كل ما هو مطلـوب في محكمة دوليـة، فـأوجبت الصـلح عنـدما ينشب نزاع بين طائفتين من المؤمنين، وهو أمر يجعل إجراء الصلح أمرًا يجب تطبيقه، ولا ينتظر في هذه الحالة طلب إحدى الدولتين التدخل، أو رفض إحـــدى الدولتين هذا التدخل باعتباره تدخلاً في شئونها الداخلية، فإذا كللت مسـاعي الإصـلاح بالنجـاح، فقد قضي الأمر، أما إذا بغت إحداهما على الأخـرى ورفضت الصـلح فعلينا أن نقاتل الدولة الباغيـة، فـإذا فـاءت إلى أمر اللـه، أي إذا سـلمت بخطئها ففي هـذه الحالة يُعـاد أمر الصلح، ولا يتخذ رفضها وتحديها علة لتشديد العقوبة، وإنما يكون العدل هو الرائد.

وتطـوى هـذه الصـفحة الـتي بـدأت بـالبغض وانتهت بالعـدل مع ختـام وتـذكير أن المؤمنين جميعًا إخوة، وأن الصلح واجب دائم لهذا.

عند مقارنة ما جـاء في هـذه الآية بما تقضي به بعض أصـول المحاكمـات الدولية من أن الدولة لا تتدخل إلا إذا طلب الطرفان أو طرف واحد التدخل، لأن الإسلام يـرى في هـذا نوعًا من البغي الـذي يجب عـدم الاستسـلام لـه، كما أنه يقضي بـأن يكـون الغرض من التدخل هو منع التعدي وحفظ الحقوق وتذكير المعتدي أنه إذا كان يستطيع بحكم القوة أن يهزم جارته الضـعيفة، فـإن الـدول الأخـرى لا يجـوز لها أن تجـري هـذا فتسمح للقوة بأن تنال حقاً، إنها تتدخل وعندما تنتصر فلا يسـمح لمشـاعر الانتقـام أن تتدخل، فقصارى ما يمكن أن نصل إليه أن نصـلح ما أفسـدته، أما ما هو أكـثر من ذلك فيمكن أن يثير عاطفـــة الدولة الأخـــــرى ويجعلها تـتربص وتنتظر الفرصة الملائمة لتاخذ بثأرها، وعندئذ تستمر الحرب.

لو طبقت الدولة الإسلامية نص هـذه الآية لما قـامت بينها حـروب ومنازعـات ولو قامت لما تركت حتى يفترس الأقوى الأضعف أو حتى تقضي كل واحدة على الأخـرى، وتسوى كل الخلافات بروح العدل والقسط والإنصاف.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2610)، بتاريخ 6/8/2011م.

[7]
«الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»(*)

كـان العـرب أمة وثنية تحتفي بسـبق جـواد، وتفتخر بظهـور شـاعر، وتعكف على الخمر، وعندما تشح السـماء فـإن بعضـها يهـاجم البعض الآخـر، ويسـتاق ما عنـده من أنعــــام، ويسبي النســــــاء والأطفال، وكان دور الإسلام أن يجعل من هـذه القبائل المتنافرة «أمة» تؤمن بالله الـذي تتنـاهى إليه كل الآمـال وتصـغر أمامه كل الأهـوال، وجعلهم أخوة متحابين تربط ما بينهم القيم الإيمانية من مساواة ومحبة وإيثار وشجاعة تصــــغر أمامها الحيـــــاة، وأعطى هــــذه الأمة ما تدعـو إليه وما تفخر به «الْكِتَـــابَ وَالْمِيزَانَ».

وهكـذا انطلق العـرب وقد خلقهم الإســلام خلقـاً جديـدًا، وقضى على العــــداوة والتعصب القبلي، واسـتبعد الفخر بـالجواد السـابق أو القصـيدة العصـماء، كما جعلهم يترفعون عن شرب الخمر التي تقضي على العقول وتستحل المحرمات، وأهم من هذا كله أنه وضع في يدها «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ».

انظر إلى البلاغة الساحرة في تعبير «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»، وكيف أن هاتين يوجبـان من المعاني ويثيران من العزائم ما يعجز عنه أي تعبير صريح آخر.

هذه الأمة الشابة الفتية الـتي انبثقت من عـرب الجاهلية بعد أن صـقلها الإسـلام، انطلقت حاملة «الْكِتَـابَ وَالْمِـيزَانَ»، رافعة المعرفة والعدالة إلى شـعوب الحضـارات الطبقية القديمة الــتي كــانت تحكم بالســيف وتقنن الــرق وتتفنن في ظلم النــاس فحــــررتهم وســاوت بينهم فلا فخر لعــربي على أعجمي إلا بــالتقوى و«لا طبقية بعد اليوم» وفتحت أمـام المسـترقين كل الأبـواب، ولا يفـرق بين أصـغر فارسي وابن أنبل عـربي إلا أن يقولـوا «أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمـدًا رسـول اللـه»، فقالوها عن إيمان بسماحة الإسـلام والأمــــل في مسـتقبل أفضل وأطلقـوهم على آفـاق العلـوم والفنون الإسلامية فغلبوا العرب، وأصبح الفقهاء المعتمدون في الحجاز منهم بنسـبة 5 إلى 1 عربي، بل ولم تقف أمامهم اللغة العربية إذ أصـبح عميـدها وشـيخها «سـيبويه» وأصبح كتابه هو «الكتاب».

كان الإسلام ميلادًا جديدًا لشعوب هذه المناطق التي كانت مستعبدة لإمبراطورية الرومان والفرس، بل إن هذه المناطق أصبحت هي عواصم الخلافة بعد أن كانت مدناً مستعمرة محتلة لا تملك من أمر نفسها شيئاً، فأصـبحت سـورية عاصـمة للخــــلافة الآموية، ثم أصبحت بغـــــــــــداد عاصـمة الخلافة العباسـية، ثم أصـبحت القـاهرة عاصمة الدولة المصرية، وكانت هذه المنـاطق كلها من قبل ترسف في إسـار الفـرس أو الرومان.

لقد أثبتت ثورة «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» أنها أقدر على التقـدم من أي عامل آخـر، فلا المال ولا الموارد ولا الموقـع.. إلخ، يمكن أن يعـدل ما يرمز إليه «الْكِتَـابَ وَالْمِـيزَانَ» من المعرفة والعدالة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2611)، بتاريخ 7/8/2011م.

[8]
«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا»(*)

هـذه آية من الآيـات الـتي تلهم الكثـير، تلهم أن الله تعـالى في سـماواته السـبع «يسمع» صوت تلك المـــرأة الأعرابية التي جـاءت تشـتكي إلى الله من زوجها الـذي قال لها أنت عليَّ كظهر أمي، وهي كلمة تقطع العلاقة الزوجية ما بين الزوجين، وجعل الله بها الـزوج لباسًـا للزوجة والزوجة لباسًـا للرجـل، والرسـول يفكر فيما يفعل وقد أوقع هذا الزوج على نفسه هذا اليمين الغليـظ، ونـزل عليه الـوحي بالحل وهو أن هـذا اليمين ليس إلا لغو، لأنه لا حقيقة فيها فـــ «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَـائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَـاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَـدْنَهُمْ»، والقـرآن هنا يؤكد ما ذهب إليه عنـدما أبطل التبـني لأنه يخـالف الحقيقـة، وحـتى يستأصل هـذه القالـة، فقد أوقع عقوبة على من يقولها هي تحرير رقبة «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً»

ولعلنا نلحظ في هذه الآية الأساس الذي قام عليه تحريم التبـني وهو عـدم قيامه على الحق وعدم الاعتـــــــــداد بما يبـنى على هـذه المخالفـة، كما نلحظ في آيـات الملاعنة كيف جعل الله تعـالى «الشـهادة» محل «الشـاهد» الـذي لا يتيسر أصـلاً في مثل هذه الحالة، وهنا أيضًا نجد أن الآية جعلت للفقـير الـذي لا يملك شـيئاً أن يصـوم، فإن كان لا يستطيع الصيام «فَإِطْعَـامُ سِـتِّينَ مِسْـكِيناً»، فالإسـلام يلحظ حالة المـذنب كما يلحظ حالة المحسن ولا يريد أن يضـــيق على أحد منهم، وإنما أن يفسح أمـــــام الجميع مجال البدائل بحيث يختار ما يطيق، وأجمل ما في هذه العقوبات أن ليس فيها جلد أو حبس، ولكن «إفراجات» عن مملوكين أو إطعام لجائعين.

بعد هذا بسنوات طوال، كان الخليفة عمر بن الخطاب يسـير في إحـدى طرقـات المدينــة، عندما استوقفته عجوز، وجهرت له بقول طويل.. وصوت عالٍ، وعمر صـاغ.. ساكت، فتعجب من ذلك أحد الناس وعبر عن ذلك لعمر الـذي قـال له «ويلك إن هـذه هي خولة التي استمع الله تعالى لصوتها وشكايتها من سـبع سـموات، فكيف لا يصـغى لها عمر».

ألا سقيا لعهد كـانت الأرض تتصل فيه بالسـماء، وكـانت السـماء تخـاطب الأرض، وكان أهل الأرض مطيعين لرب السماء.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2612)، بتاريخ 8/8/2011م.

[9]

«قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ»(*)

يأتي هذا الثالوث في كثير من آيات القـرآن، يقصد به في بعض الحـالات فرعـون مصر ووزيره قارون وصـاحب ماليته هامـان، كما يلحظ في حـالات أخـرى أن يقصد به كل القادة الذين يسيرون سيرتهم ويعملون عملهم.

وواضح بالطبع أن القرآن يرفض سياسة هذا الثالوث جملة وتفصيلاً، فهـــــــؤلاء هم «أَكَـابِرَ مُجْرِمِيهَا» وهم الـذين يتحملـون المسـئولية الأولى عما أصـاب قـومهم من انحراف في العقيدة واستبداد في الرأي ومفاســـد في الحكم، وهو يـرى فيهم أســوأ صورة لنظام سياسي.

لقد عبر القرآن في العديد من الآيات عن الحكم الرشيد، بقدر ما تجنب أن يــذكر أســماءً، لأن الحــاكم هو واســطة عقد الحكم، وعليه تتوقف ســعادته وتعاســته وفاقته وشقاءه.

القرآن يبشر الذين «لا يُرِيـدُونَ عُلُـوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَـادًا»، «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَنْ الْمُنْكَـرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَـةُ الأُمُورِ»، ويحذر من نتيجة الإعراض عن هدى الله « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ».

وإذا أخذنا بحكم القرآن على الملوك يكاد أن يكـون نقـدًا خالصًـا «إِنَّ الْمُلُـوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُـوا أَعِـزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَـذَلِكَ يَفْعَلُـونَ»، «إِنَّ فِرْعَـوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَـةً مِنْهُمْ يُـذَبِّحُ أَبْنَـاءَهُمْ وَيَسْـتَحْيِ نِسَـاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ».

إن القرآن الكريم لا يأتمن ملكًا على ســــــــفينة في أرضه «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا».

فإن الحديث المشرق الذي يفيض بالرضا والحمد لحكم المؤمنين الذين لا يسعون في الأرض علـوًا، وبين هـذه النمـاذج من الطغـاة والفـراعين الـذين شـــــــــــغلوا صفحات التاريخ بأنبـاء حـروبهم واسـتبدادهم ولا يزالـون على ظلمهم وغـرورهم حـتى تأتي ساعتهم الأخيرة ويبدو لهم سيئات ما عملوا، ولكن هيهات إن الموت أســرع منهم وقد ختم حياتهم على ما فيها من مساوئ.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2613)، بتاريخ 9/8/2011م.

[10]
«أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا»[*]

يأتي هذا التعبير في أكثر القراءات شيوعًا بجعل «أَمَرْنَا» بمعنى أمرناهم ضد نهيناهم، ولكن هناك قراءة أخرى تجعله من «التأمير والإمارة» وهذا هو المعنى الذي نفضله.

وتمام الآية «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»، وهي تعبر عن ظاهرة يعرفها كل من يدرس النظم السياسية ويتابع ظهورها وتحللها، وتعد الأكثر شيوعًا وتأثيرًا في تدهور المجتمعات، تلك هي أن يلي الأمر المترفون الذين ألفوا حياة الترف، ويرون أن الولاية يجب أن تزيد لهم فيها، وقد ظهر من قال «كان عمر بن الخطاب يحرم آله في سبيل الله»[1]، وأنا أعطي آلي في سبيل الله!»[2]، وأصبح ذلك دأبًا ووسيلة للاستحواذ على المال حتى قال قائلهم :

أحار بن بدر قد وليت ولاية فكن جرذاً فيها يخون ويسرق

[أحار بن بدر اسم المخاطب واختصارًا له واسمه حارث]

فماذا ننتظر من دولة تنصرف كل يد تعمل فيها للكسب من منصبه : بالرشوة أو الاختلاس أو اهتبال الفرص لكي ينمي ثروته، ويفقر الدولة بقدر ما يثري نفسه.

إن النهاية آتية لا ريب فيها، لأن الحكم لا يجوز أن يكون تجارة وكسبًا، وإنما هو خدمة وقيامًا بواجب.. وتحقيقاً لهدف عام هو أن يسهم عمله في ارتقاء الأمة.. في حل مشاكلها.. في مساعدة عامة الناس ليحيوا حياة طيبة في أمن وسلام.

الذين يقدرون العمل العام لا يطمعون في أكثر من أن ينجو بأنفسهم من إغراءاته، لأن السلطة مفسدة، ولابد لكل من يشغلها أن يتعرض لذلك ولا ينجو من ذلك إلا بفضل حرية المعارضة وأن تقوم الصحافة بفضح كل صور الانحراف وأن تحاسب الأحزاب كل العاملين من الرئيس حتى الخفير، فهذا وحده ما يعصم الرجل الشريف.

إن كل من يلي منصبًا خطيرًا أو مسئولية ضخمة لا يمكن أن يكون أكبر من يوسف الذي تعرض للإغراء، فدعا الله من صميم قلبه «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

إن كل من يشغل منصبًا هو على شفا خطر عظيم، وسيكون محظوظاً لو نجا بنفسه منه.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2614)، بتاريخ 10/8/2011م.

(1) بمعنى يحرم أهله من أشياء طلبًا لرضا الله خوفاً منه أن يغضب عليه إذا أعطاهم

(2) بمعنى أعطى أهلي أشياء طلبًا لرضا الله لئلاُ يغضب عليّ إذا لم أعطهم.

[11]
«وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ»(*)

موقف الأديان من الفتنة واحد، فالمسيحيون يدعون أن لا يدخلوا في تجربة، والمسلمون يقولون لا تتمنوا لقاء العدو، وهناك حديث مشهور «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، وعلى أساس هذه الفكرة وضع الفقهاء مبدأ من أكبر مبادئ الفقه الإسلامي وهو «سد الذريعة»، اعتبر فيه أن كل ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام.

والقضية هي قضية الضعف البشري وتقدير كل واحد لمدى مقاومته أو استسلامه، وقد عرضت سورة يوسف هذه الناحية من الطرفين، طرف الغاوي وطرف المقاوم الذي خاطب ربه قائلاً «السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»، ولكنه مع هذا يعترف «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ».

فدل ذلك على أن الإنسان قد لا يستطيع أن يقاوم الإغراء إن لم يخصه الله برعايته، فإذا كان هذا هو الأمر بالنسبة لنبي كريم، فكيف يكون بإنسان عادي ؟

هل معنى هذا أن المبدأ المقرر الذي أشرنا إليه في مستهل الكلمة أعني أن البعد عن الفتنة، أو الشر هو المسلك الأسلم ؟ هل يدعم هذا المثل الشعبي الذي يقول «إبعد عن الشر وغني له ! »، وهو مثل يبدو غاية في الحكمة والإصابة، أم إن هذا يُعد نوعًا من الجبن والاستخذاء والفرار من المعركة، وإن عليه أن «يقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ» لا بمعنى أن يستسلم للإغراء، ولكن أن يقاوم وينتصر، وحتى إذا لم ينتصر فحسبه أنه دخل المعركة وأبلى بلاءً حسناً، ورب هزيمة مشرفة أفضل من انتصار هزيل.

إنه خيار صعب ما بين حماية يحققها المبدأ أصلاً وبين مغامرة قد يخرج منها مثخناً بالجراح، حتى عند الانتصار، يظل ابتهال يوسف «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ» لأنه مهما كانت ثقتنا في أنفسنا، فإن ثقتنا في الله أكبر وأعظم.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2615)، بتاريخ 11/8/2011م.

[12]
«لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»(*)

عجيب أمر الإسلام، كل دين يتحدث عن نفسه باعتباره طريق الهداية والنجاة، ولا يشير إلى الأديان الأخرى، وقد يشير إليها بما لا ينصفها إلا الإســـلام، فالإسـلام يسـرد لنا الكثير من أنبـاء الأنبيـاء السـابقين ومن كفـاحهم وجهـادهم في سـبيل الله ويضـفي عليهم ما هم أهله من الثناء. أغلب الظن أن جـزءًا من هـذا يعـود إلى أنه آخر الأديـان، ومن ثم فإنه يعلم عن الأنبيــاء ما تعلمه الأديــان الســابقة، ولكن الإســلام لا يســوق الحديث عن هؤلاء الأنبياء من باب الذكر التاريخي ولكن ــ وهـذا هو الهـام ـــ من بـاب فرض الإيمان بهم على المسـلمين، وهو يـذكر أسـماء لفيف منهم، ويضـيف «لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»، كما أنه يذكر في مجـال آخر أنه لم يقصص على الرسـول قصص كل الأنبياء.

إن المســلم يقـــرأ في ســورة البقــرة «آمَنَ الرَّسُــولُ بِمَا أُنــزِلَ إِلَيْــهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْ رُسُـلِهِ وَقَـالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، كما يقرأ في سـورة آل عمـران «قُـلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُـوبَ وَالأَسْـبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

إن القارئ المسلم لهذه الآيات لا يشعر بحساسـية نحو هـؤلاء الأنبيـاء الكـرام ولا يجد ما يدعوه للتفرقة بينهم، بل يجد تحريم أي تفرقة بينهم.

فهل يعقل أن يكـِّن لهؤلاء الأنبيـــاء ولما جاءوا به من دين نفورًا أو صدودًا.

إن هذا أمر بعيد، والأقرب هو أنه سيؤمن أن الأديان واحدة في أصلها، وأن الأنبياء أخوة، وأن العلاقات التي يجب أن تكون ما بين الأديان بعضها بعضًا هي علاقات الأخوة والمحبة، وأن الجميع يقفـون في خنـدق الإيمـان ليواجهـوا عولمة شرسة تحـارب بكل سلاح للتفرقة بينهم وإضـرام العـداوة والبغضـاء حـتى تسـتطيع أن تهـزم كل دين على حدة وتجعل من العالم بأســره سوقاً للمنتجات الأمريكيـة، ومن الشـعوب مسـتهلكين تأكل البيتزا وتشرب الكوكاكولا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2616)، بتاريخ 12/8/2011م.

[13]

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ»(*)

قال صاحبي «أوقعت نفسك في مأزق، كنت تريد أن تقول إن الإسلام يعترف بكل الديانات ويؤمن بكل الأنبياء وذكرت الآية (84) من سورة آل عمران، ونصها «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، وأغفلت الآية التي بعدها مباشرة (85)، وهي «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ»، فقد نصت الآية على أن الدين حقاً هو الإسلام وأن أي دين آخر «لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ»، أفلا ترى أن ذلك يتناقض مع الآية السابقة وما تنص عليه من الإيمان بكل الديانات والأنبياء الذين ذكرتهم»، قلت له ليس هناك تناقض، إذ يجب أن نفهم منها ما يتوافق مع الآية التي جاءت بعدها وهي الآية (86) وهي تقول «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

إن أي واحد يتصدى لتفسير آية يكون عليه أن يقرأ الآيات الخمس أو الست قبل هذه الآية والآيات الخمس أو الست بعدها حتى يتبين له المقصود، لأن الآيات تبدو كما لو كانت آية مستقلة عما سبقها وعما بعدها، ولكن الحقيقة أن الآيات متصلة، فهي كموجات البحر، تظهر كل موجة كما لو كانت مستقلة في حين أنها كلها مترابطة، والقرآن باعتباره كتاب فني بلغ الغاية من الفن يكثر من الاستثناء أو التخصيص أو غير ذلك مما لا يرد في الآية الأولى التي تحكم صياغتها الفنية بأن تكون ما كانت عليه، ثم يأتي بعدها ما يبين المعنى، فإذا قرأنا الآية التي سبقتها وهي الآية التي توجب الإيمان بكل الديانات وكل الأنبياء مما يبدو كما لو كانت متناقضة، ولكن الآية التي بعدها «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» توضح أن المقصود بالآية جماعة خاصة آمنت بالرسول «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ»، إذا أرادوا الرجوع من ردتهم الغليظة وأفعالهم العدوانية فلن يقبلهم الإسلام وأوضح مبررات ذلك، فالحديث إذن ليس على مطلقه وإنما هو حالة خاصة بعينها.

ثم دعني أقول لك لماذا تعترض على رفض الإسلام.. إسلام فئات بعينها لظروف بعينها، في حين أنه اعترف بالأديان السابقة، وهل تتوقع أن ديناً يعلن أن الدين الآخر أفضل منه ؟ هذا مستحيل عمليًا، وإلا يوجب عليه أن يؤمن بهذا ويهجر دينه، ولكن الإسلام في الوقت الذي آمن بهذه الديانات وهؤلاء الأنبياء، فإنه لم يوجب على هؤلاء ترك أديانهم والإيمان بالإسلام، ولكنه كان ينتظر منهم الإشارة إليه وأن لا يفرقوا بينه وبين أديانهم، كما قررت الآية (58) مع التمسك بدياناتهم، كما أن المسلمين يؤمنون بهذه الأديان ويؤمنون أيضًا بكل الأديان الأخرى، ولا يرون في هذا مجافاة لحرية الفكر والاعتقاد، ولربما لو شُرِحَ الإسلام لأتباع أريوس وأتباع نسطور لآمنوا بالإسلام، لأن الأول يؤمن أن المسيح رسول ونبي، ولأن الثاني يؤمن أن مريم ولدت رسولاً لا إلهًا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2617)، بتاريخ 13/8/2011م.

[14]
«الإسلام ديـن الجميع»(*)

يرى الإسلام أن كل الأنبياء والرسل السابقين هم مسلمون، لأن الإسلام لا يرتبط بشـخص أو بقبيلة أو بمدينـة، ولكنه يشـتق من إسـلام القلب والوجه للـه، وهـذا هو الخصيصة العظمى للأديـان، وقد ركز القـرآن عليها وأغفل ما هو دونهـا، وعلى هـذا الأساس قررت الآية «مَا كَانَ إِبْـرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْـرَانِيًّا وَلَكِنْ كَـانَ حَنِيفًا مُسْـلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» (آل عمـران : 67)، «وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (العنكبوت : 46).

وأخيرًا فيجب أن يذكر أن الإسلام قنن وأبَّـد وجود الأديان وضرورة التعـايش بينها على أسـاس الحالة الراهنة Status quo في سـورة الكـافرون قـرر أن الكفـار لن يسـلموا وأن المسـلمين لن يكفـروا وعلى هـذا الأسـاس بـنى مبـدأ «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

أما ما جاء من اختلافات ما بين هذه الديانات فالله يحكم فيها يوم القيامة، ويعتبر أي حكم من ديـن على ديـن نوعًا من الافتيـات لأن كل ما بين الأديـان إلى الله يـوم القيامة.

إن أمر الأديان يمكن أن يكون سهلاً.. مبسطاً إذا أخذناها إيماناً بالله.. وبالأنبيـاء.. وبالكتب.. واليوم الآخر، فهذا ما يوجد في كل الأديان وما يجعلها واحـدة في الحقيقـة، ولكن الـذي عقـدَّها هو ما دس على الكتب المقدسة على الأقل عند ترجمتهـا، وقد ترجمت كلها من لغتها الأصلية، أو نتيجة للخلافات المذهبية في الأديـان أو ما جـاءت به المؤسسة الدينية تدعيمًا لها وكـانت النتيجة ليس فحسب تعـدد الأديـان بل أيضًـا رغبة كل مؤسسة دينية في الإسـتحواز على الآخـر، بما في ذلك الإسـلام الـذي يقـول قرآنه بفصيح العبارة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، ويقول «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَـابِ تَعَـالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِـذَ بَعْضُـنَا بَعْضًـا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2618)، بتاريخ 14/8/2011م.

[15]
«لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»(*)

مكانة الرحمـــــة في الإسلام تثير التساؤلات، فهناك قالــة منتشـرة عن الإسـلام أنه هو دين الحـرب والقتــــال، دين السـيف والسـنان، وأنه دين «عملي» لا يعـترف بالعاطفة ولا يجد الحب مكاناً فيه.

هذه الفكرة المنتشرة خاصة لدى المستشرقين تخالف ــ بل تضاد ــ روح الإسلام إن اسم الإسلام نفسه يكشف عن طبيعته فهو السـلام، والمسـلمون يتبـادلون تحيتهم بالسلام، والسلام من أسماء الله تعالى وإن رحمة الله تفوق بمائة مرة رحمة الحمامة بوليدتها، وأن ما يـتراحم به النـاس جميعًا في هـذه الحيـاة إنما يتم بواحد من مائة من رحمة الله، وسور القرآن مبدوءة دائمًا باسم الله الرحمن الرحيم، ورسول المسـلمين مرسل رحمة للعالمين.

وخذ صفة الله «قُلْ يَا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الـرَّحِيمُ»، فهل تـرك شـيئاً اسـتثناه من رحمة الله، إنه لم يستثن شيئاً بل قال «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا».

آية شـاملة.. كاملـة.. ليس فيها اسـتثناء وليس فيها تحفـظ، بل هي تنـادي الـذين يأسوا من رحمة الله لأنها «وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ».

إن الإسلام يعترف بالضعف البشري.

واستكشف أحد الصحابة ويـدعى حنظلة في إحـدى تأملاته أنه يكـون عند رسـول الله خاشعًا.. تقيًّا.. راضيًا.. مرضيًا، ثم يعود إلى بيته فيعيش في عـالم آخر عـالم الأكل والشـرب.. عـالم الهـوى والشـهوة، فتصـور أنه قد دخله النفـاق، وسـار ليشـكو حاله للرسول فقابل أبو بكر وقال له نافق حنظلة، فسـأله أبو بكر وكيف ذلك ؟ فقص عليه ما استشـعره فقـال أبو بكر وأنا أيضًـا أستشـعر هـذا، وذهبا للرسـول وقصا عليه ما استشعراه، فابتسم الرسول وقال «لو تكونوا مع أهلكم كما تكونـون معي لصـافحتكم الملائكة.. ولكن ساعة وساعة»، فـأي سـماحة مثل هـذه.. وأي اعـتراف بما أباحه الله من لهو واستمتاع مثل هذا.

ومما يتميز به الإسلام مبدأ «البراءة الأصلية» الذي يعني أن كل الأفعال تعد بريئة ما لم يـنزل في تحريمها نص جلي من القـرآن ليس فيه تأويل أو احتمـال، فـأي سـعة وسماحة وحرية مثل هذا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2619)، بتاريخ 15/8/2011م.

[16]

«وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ»(*)

كثيرًا ما يضرب القـــــــــرآن المثل ليقرب على القارئ المعـنى المطلـوب ولا يكون هنـاك صـعوبة أو لبس في فهمه وفي الـوقت نفسه يوجد الأثر المطلـوب، ومما ينفرد به القرآن، ولا يمكن لكتاب آخر أن يلجأ إليه أو يأت بمثله أن يضرب المثل «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْـدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُـرٍ مَا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

فياله من مثال يعطي القارئ فكرة عن عظمة «كَلِمَاتُ اللَّهِ» وهو مع هذا حقيقي لأن الأرض كلها بما فيها من محيط هـادي حجمه أكـبر من القـارات وعمقه يصل إلى ستة آلاف متر، وبعده البحار، فـأين هي الأرض من ملك اللـه، إن الكـرة الأرضـية كلها ليست إلا رملة في هذا الكون.

إن تأمل هذا المثال يجعل الإنسان «يدوخ» فـأي شـيء أكـثر من أن تكـون قارته حبة رمل في صـحراء، فـأين هـو، وهل يكـون له وجـود وكيـان وحجم ؟ طبقـاً لهـذه القياسـات لا يمكن تصـور مـدى ضـآلة الكـائن البشـري، ولكن الله تعـالى اختص هـذا الكائن البشري وقارته تلك الصغيرة بالنسبة للكـون والكبـيرة بالنسـبة لما تحمله على ظهرها وما تدخره في أعماقها ما يكفي لإطعام المليـارات السـتة من الآدمـيين الـذين يعيشــون، فما أعظم إحســانك يا الله عنــدما أعطيت الإنســان العقل والفكر والقلب الحساس والحرية في العمل، وبهذا جعلت له حيوات في عالم واحد.

كان الإمام أحمد بن حنبل يشبه الرجل الذي يبحث عن المعرفة بالـذي يسـبح في وسط المحيط، أين يذهب وكيف ينجو ؟ ولم يدر بخلده أن هذا الإنسان قد يتوصل إلى صنع «صاروخ» يضع فيه عددًا من الرجال ويطلق ليتجاوز بهم الأرض ويــذهب بهم إلى القمر.

إن التأمل في ما تضـمه الأرض في جوفها وعلى سـطحها، وفي دراسة الإنســان غذائه وملكاته لآيـات على عظمة الله وعلى إحســانه وعطائه الجم للإنســان بحيث لو أمضى عمـره كله سـاجدًا عابـدًا لما أوفى بما قدمه الله تعـالى لـه، كما يمنحه القـوة والشجاعة بحيث لا يغريه ما يكسبه ولا يحزنه ما يفقـده، وإنما هو واثق من أن ما يـأت به الله أفضل مما يفكر هو فيه، وبهذا لا يفقد الرضا والسكينة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2620)، بتاريخ 16/8/2011م.

[17]
«لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»(*)

يتنزل القرآن من سماواته ليخـاطب الإنسـان، وليعلمه ويهديـه، ويقف منه موقف المعلم من الطالب، ويتحـدث إليه كما يتحـدث المعلم مع طـالب جاهل ومشـاكس فلا ييأس أنه يضـــرب له الأمثال، ويكشف له عما ينتظره في الآخرة من ثـواب وعقـاب، ووسيله القرآن وطريقته طريقة فريـدة في تـذكير الإنسـان، وفي التغلغل إلى أعماقه وفي ترغيبه وترهيبه بحيث يخلص في النهاية مما هو فيه من الضلال، ويحدث هــذا في أسلوب جزل قوي متمكن غاية التمكن بحيث تتنافس البلاغة في المبنى مع النبالة في المعنى «مَا أَصَـابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِـكُمْ إِلاَّ فِي كِتَـابٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَـوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَـاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ».

هـذا الأدب الرفيع يسـاق بهـذا الأسـلوب الأنيق ويـدخل النفس دخـولاً رفيقـاً، إن طريقة القرآن في الهداية أعظم من أن تكون ما في الأسـلوب من فخامـة، ولكن في الثقة والتأكيد التي لا تفسح مجالاً للشك، فينتهي الأمر بالإيمان.

ولو أن الدعاة والمعلمين طالعوا القرآن مـرة بعد أخـرى لاكتسـبوا من روح الثقة وعمق الإيمان ما يعطي أقوالهم قوة، وما يجعل لها نفاذاً، فالمسألة ليست البلاغة كما يصفها اللغويون، ولكنها قبس من قدرة الله وشعاع من أشعة نوره الثاقب.

وانظر إلى هذا السطر الصغير «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»، فإنه يحذرهم من الأسى لما قد يكون فاتهم أو ما خسروه، وفي الوقت نفسه يحذرهم أن يستخفهم الفــــرح بما يكسبوه، وكان يمكن أن يأخذ منه صفحات وصفحات.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2621)، بتاريخ 17/8/2011م.

[18]
«لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»(*)

ـ 1 ـ

هذه الآية السادسة والأخيرة من سورة الكافرون ترسي مبادئ على أعظم جانب من الخطورة والأهمية، وتحدد العـــــــلاقة ما بين الإسلام وبين بقية الديانات.

وهي تبدأ بتوجيه إلهي للرسول بأن يقـول إنه لا يـؤمن بأديـانهم، وإنهم لن يؤمنـوا بالإسلام، وتكرر هذا المعنى لتنتهي بالنهاية «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

«قُـلْ يَا أَيُّهَا الْكَـافِرُونَ * لا أَعْبُـدُ مَا تَعْبُـدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَا أَعْبُـدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

وليس هنـاك مـبرر لتكرير الآيـــة ذات المعـنى الواحد إلا أنه مؤشر على أهمية خاصة تستحق التكرير.

لقد أثار اسمها «الْكَافِرُونَ» حساسية لدى بعض الأقبـاط، وهي حساسـية لم يكن لها داع، لأن معنى «الْكَافِرُونَ» لا يتضـمن سبًا أو قـذفاً وإنما معنـاه الـذين لا يؤمنـون بالمعتقد الذي يؤمن به الآخر، فالمســــــلم يُعد كافرًا بالنسبة للمسيحي، والمسيحي يُعد كافرًا بالنسبة للمسـلم، وقل مثل ذلك بالنسـبة لكل الأديـان، والآية تريد أن تقـول كل الذين لا يؤمنون بالإسـلام، فهل كـان لازمًا أن تقـول أيها المسـيحيون، أيها اليهـود، أيها البوذيـون، أيها الهنـدوكيون وتأخذ في سـرد البـاقي بالاسـم.. إلخ، فضـلاً عن ملل ونحل ستظهر بعد الإسلام.

من أجل هذا كان لابد للقرآن أن يقول «يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ».

إن هذه السورة على قصرها تقدر المبادئ الآتية :

أولاً : أن غير المسلمين لن يكونوا مسلمين.

ثانيًا : أن المسلمين سيظلوا مسلمين ولن يغيروا دينهم.

إذن «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»، وهذه بدورها تعني :

(أ) تقرير تأبيد التعددية الدينية واستمرار الحالة الراهنة Status quo.

(ب) أن تقوم العلاقات ما بين الأديان المختلفة على أساس التعايش واحترام كل واحد للآخـــر، وهـــذا هو الحل الأمثـــل، لأن البـــديل الآخر هو المشاكسة والعـــــــــداوة والحرب ولا يمكن أن يكون أساسًا لمعايشة.

وأعتقد أن المسلمين ــ وإن لم يقدروا هذه السورة قدرها ــ فإن مسلكهم بصـفة عامة كان تطبيقًا لها، وإن لم تجعلهم يفهموا أن المسلم المرتد لا عقوبة عليه ولا كلام فيه، فهذه إرادته وهو المسئول عنها، وهذا ما يصدق على المسيحيين أيضًا.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2622)، بتاريخ 18/8/2011م.

[19]

«لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»(*)

ـ 2 ـ

إن استلهام هـذه الآيـــة لا يقف عنـدما انتهينا إليه في كلمة الأمس ألا وهي تأبيد التعددية الدينية، وجعل العلاقة ما بينها على أساس التعايش الودي ومبدأ «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ»، ذلك لأننا لو مددنا توجيهات السورة لوجدنا أنها تمتد لكي تمنع التبشير من ناحية المسـيحية والتبليغ من ناحية المسـلمين، لأن هـذا وذاك لن يكـون لهما إلا أثر ـــ سـيئ ـــ لأن كل واحد منهما لابد وأن يتضـمن عناصر تمـيز لـدين على دين، وهـذا ما يخـالف مبـدأ التعـايش الـودي ويجب أن يتنـازل المسـلمون والمسـيحيون عن فكـرة التبشـــــــير العزيـزة عليهم والمسـيحيون بوجه خـاص يـرون أن التبشـير أسـاس المسيحية «الويل لي إن لم أكن مبشرًا» بطرس، كما يتصـور المسـلمون أن المسـلم عليه أن يعرِّف بدينـه، وهـذه التوجيهـات كـانت معقولة ومـبررة في الأيـام الأولى لكل دين، ولكن الأديـان نجحت وبسـطت سـلطانها على دول بعينها كما قد يثـير النظر أن المسيحية لم تمد تبشيرها إلى اليهود مع أنهم أولى الناس بهـذه الهدايـة، وأن المسـيح قال «إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة».

وليس معنى هـذا أن يكـون حـديث فريق إلى فريق آخر عن الأديـان «تابــو» لأن من الممكن الإشادة بالسـيد المسـيح وبالرسـول محمد وبـدورهما العظيم في إشـاعة الخير، ويمكن أن يدور الحديث حول جـانب مثل الرهبنة في المسـيحية والتصـوف في الإســلام كما يمكن الحـــديث عن عناصر الاتفـــاق في الأديـــان وهي أكـــثر من عناصر الاختلاف، والمهم في هذا كله أن يصدر عن روح طيبة خـيرة وعلى مسـتوى أعلى من المستوى الشائع والذي يشوبه دائمًا ما يكدر صـفوها، وعلينا أن نـؤمن أن طيبة القلب وسلامة النفس هما أهم مقصد في الأديان.

وقد ثار كلام كثير عن الحوار بين الأديان، ولكنه لم ينجح وكـان لابد أن يفشل لأن القـائمين عليه هما المؤسسـتان الـدينيتان، والمؤسسة الدينية هي آخـــــــــر مكـان يلتمس فيه الإنصاف والعدل والموضـوعية لأنها ليست إلا المحـامي الرسـمي للديانـة، ولهذا لم تنجح المحاولات بين الأديان، والمفروض أن يقوم بها أحرار الفكر الـديني من المسيحيين والمسلمين وأن تتناول القـيم العليا التي استهدفتها الأديان مثل السـلام ـــ الخيـــر ـ المعرفة ـ مقاومة التعذيب ـ مقاومة الحـروب.. فهـذا هو المـدخل السـليم والناجح للحوار بين الأديان.

(*) **نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2623)، بتاريخ 19/8/2011م.**

[20]
«إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»(*)

جـرت العـادة في أوروبا وأمريكا بـأن يقولـوا لكل من يأخذ إجـازة أو يبـدأ رحلة «اســتمتع بوقتــك»، لأن الاســتمتاع بــالوقت يكــون أهم ما يُحــرص عليه في هــذه المناسبات ولعلهم يقيمون معادلة ما بين العمل المرهــق في المصانع والمكـاتب وما في الإجازة من استرخاء واستمتاع.

وليس في الإسلام ما يمنع ذلك، ولكن الإسلام يُـذكر الإنسـان دائمًا «وَلا تَقْـفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»، فلعله محتـاج إلى هذه التوصية أكـثر من «اسـتمتع بوقتـك» الـذي سـيفعله بالفعل يحكم الإجـازة أو الرحلة.

إن نقطة الإبداع في الآية هي «وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» التي تقيم أحكامًا أو تعرض مفاهيم مما «لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» فتسـيء إلى الحقيقة وقد يلحق الضـرر بنـاس، إن المؤمن يجب أن يكون كيسًا فطناً يقف عندما يوقفه الحق.

وهي توضح أن الإنســان مســئول وأن كل شــيء يقوله أو يفعلــه، بما في ذلك «خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّـدُورُ»، وأنه سيحاسب عليه يـوم القيامة حسـابًا يضم كل صغيرة وكبيرة، كما أنه سـيثاب بكل صـغيرة أو كبـيرة في عمل الخـير كائنـاً ما كـانت بحيث لا يظلم «مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»، وكيف يظلم وفي الحساب الإلهي تحسب السـيئة بسـيئة واحدة بينما تحسب الحسنة بعشر أمثالها وقد تصل إلى سبعمائة.

فالله تعالى حريص على عباده، وهو عندما سن الثواب والعقـاب فـذلك لأن أمـور الدنيا كلها لا تسير أو تنتظم إلا على أساس الثواب والعقاب.

وقد يتصل بهــذا أن الله تعــالى يريد من المؤمــنين أن يكونــوا من الــواعين لا الغافلين، ومن المحسنين لا المسيئين.

ويتجلى النظم الموسـيقي في جمع كلمـات متجاوبـات تكـاد تكـون متحابة «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ» واستخدام صيغة المصدر واتساق الآية مع الآيات التي سـبقتها والتي لحقتها مما يجعل السورة كلها تتجـاوب وتتماشى تمامًا مع الآيـات الـتي سـبقتها والآيات التي لحقتها والتي تجعل هذه الســــــــــــورة عقـدًا نظيمًا ويتلاقى السـياق والأسلوب بالأوامر والنواهي دون أي نشوز وهـذا بـدوره هو مما يسـهل حفظها ويثبتها في الفؤاد وعلى اللسان.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2624)، بتاريخ 20/8/2011م.

[21]
«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ»(*)

هـذه هي شـيمة جمـاهير عديـدة من النـاس، دق عليها سر الوجـود فتصـوروا أن مجرد مرور الأيـام والشـهور هي الـتي أوجـدتهم وهي الـتي أطلقـوا عليها «الـدهر» أو الطبيعة التي يطلق عليها «نيتشر» وهي الكلمة الأولى في الرسالة الـتي كتبها السـيد جمال الدين الأفغاني بعنوان «الرد على الدهريين».

وقد انتقد القرآن هذه القالة ورفض أن تكون علمًا «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» في حين أن أصحابها يظنون أنهم حلوا بها مشكلة الوجود وتخلصـوا من فكـرة «اللـه» وما توجبه عليهم من تبعية والتزامات، وهذا هو مضمون «العلمانيـة» في أعمق تفسـيراتها أو ما يقال إنها «الدنيوية» إشارة إلى الحياة الدنيا، وهو التفسـير الـذي ترفضه الأديـان جميعًا لأنه يتحلل من فكـرة «اللـه» ويضع تعبـيرًا مجـردًا هو الـدهر أو الطبيعة يحتمي وراءه.

ولك أن تتصور المدى البعيد بين فكر لا يرى في الوجـود إلا الحيـاة الـدنيا، وأنه لا يعيش إلا حياة واحدة، فهو لا يرى التزامًا أو تبعة من أي نـوع، وهو حر بالتـــالي وعليه أن يستمتع قـدر طاقته فليس إلا حيـاة واحـدة، وفي ظل هـذا الانفلات من الالـتزام أو الانتماء فإن كل نوع من السلوك يحقق النجاح يُعــد أسلوبًا مقبـولاً ولا غضاضة عليه.

أما زيف دعــوى «الدهريــة» أو «الدنيويــة» الــتي لا تعــترف بإلـــه، وإنما الأمر للطبيعة، فيتضح لو تساءلنا هل في هذه الطبيعة عقل، أو أنه ليس لها شيء منه، فـإذا كان لها عقل فإنها تكون تعبـيرًا فجًا عن اللـه، وإذا لم يكن لها عقل فكيف تتوصل إلى خلق أعظم وأدق المخلوقات، وهل يتلاءم هذا مع طبيعة الأمور ؟

المفارقة المدهشة أن الذين يدعون هذه الـدعوى هم في حقيقة أمـرهم أول من يفترض ضمناً أن كل ما في الوجود من إحكام وفائدة وجمال ودقة يتطلب وجود خالق يمثل النهاية في الكمال والقدرة، ولكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك، لأن ذلك سـيفرض عليهم الاعـتراف بالتزامـات وهم لا يريـدون شـريكًا، فضـلاً عن سـيدٍ أو إلــــهٍ ولهـذا يعيشـون المفارقة الـتي أشـرنا إليهـا، عـالم عجيب في إعجـازه ودقته دون الاعـتراف بخالق لهذا الإعجاب والدقة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2625)، بتاريخ 21/8/2011م.

[22]
«إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً»(*)

في آية أراد الله تعالى أن يصور طموح الإنسان وتصديه لما تعجز عن التصدي له الأرض والسموات والجبال قال «إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً».

وقد كان ختام هذه الآية مما أثار في نفسي حيرة لبعض الوقت، فالله تعالى هو الذي اختار الإنسان خليفة له، مما يفترض فيه الكمال، أو ما يقرب من الكمال، ولكن الآية تفاجئنا بأن الإنسان ظلوم جهول، لأن طموحه يفرض عليه تحديات قد يسيء في تحقيقها.

خذ مثلاً استطاع ميكانيكي بريطاني في أوائل القرن التاسع عشر وبفضل المصادفة أن يكتشف أن البخار الذي يتصاعد نتيجة لغلي الماء إذا حبس ووجه فإنه يكون قوة مركزة، وأن هذه القوة يمكن أن يستخدمها في إدارة الآلات فظهر القطار البخاري وآلة النسيج الميكانيكية وأطلق على هذا الاكتشاف الثورة الصناعية لأنه اكتشف طاقة يمكن أن تعمل ليل نهار لا تكل ولا تمل مادام تحتها نار تشتعل وبخار يتصاعد.

وبهذا استنقذت هذه القوة عمال النسيج وهي الصناعة الأولى التي استخدمت فيها قوة البخار، وظهر روبرت أوين وهو يبشر العمال أنهم لن يعملوا بعد اليوم إلا أربع ساعات لأن إنتاج هذه الساعات الأربع يعادل إنتاج اليوم كله وسيكون عليهم أن يقضوا بقية اليوم في التنزه أو القراءة وممارسة الهوايات المحببة.

وكان هذا ادعاءً حقيقيًا لولا أن أصحاب المصانع قالوا لأنفسهم ولماذا لا يشتغل العمال كما كانوا يشتغلون من قبل ؟ ونكتنز الأرباح الكبيرة لكي نكبر المصنع وننهض به.

وصنع أحد العلماء لعمال مناجم الفحم مصباحًا إذا انطفأ دل ذلك على عدم وجود الأكسجين الذي يعرضهم للاختناق ولكن هذا جعل أصحاب المناجم يحفرون لأعماق أبعد مما يعرض المناجم للانهيار ويصبح المنجم مدفنا للعمال.

وأسوأ من هذا كله.

كان سيدنا سليمان قد طلب من الله أن يعطيه معجزة لم يعطها لأحد من قبله، فأعطاه الله بساط الريح الذي مكن سليمان أن يطير في الهواء، ولم يتكرر هذا حتى تصدى إخوان رايت لصنع طائرة من خشب وذات محرك.

وتقدمت صناعة الطيران حتى أصبحت الطائرات قصورًا طائرة

وبالطبع فإن هذا خدم البشر خدمة عظيمة ولكنه عند فترة أصبح لعنة البشرية، فهذا الاختراع جعل الحرب تجري في السماء، وجعل من الممكن أن تدمر الطائرات بالصواريخ والقنابل مدناً بأسرها وتبيد سكانها من رجال ونساء.

ومع التقدم أصبحت صناعة التسليح هي أكبر صناعة في الولايات المتحدة وأصبح الاقتصاد العالمي رهن بالاقتصاد الأمريكي الذي أصبح رهناً بصناعة التدمير والهلاك.

فهل هناك جهلٌ وظلمٌ أعظم من هذا ؟

ولماذا يسمح الإنسان أن يطلق العنان لغريزته، وأن يستغل كل علمه في القتل والتدمير فيصبح العلم أسوأ من الجهل، ويصبح الظلم وليس العدل هو ما يعمل له.

من هنا كان الإنسان «ظَلُومًا جَهُولاً».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2626)، بتاريخ 22/8/2011م.

[23]
«وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ»(*)

ـ 1 ـ

كان الربا في الزمن القديم هو الطريق لاستعباد الفقـراء، ذلك أن الفقـير عنـدما يقترض فإنه لا يقدم ضماناً لأنه لا يملك شيئاً، وبالتالي يكون جسمه هو الشـيء الوحيد الذي يمكن لدائنه أن يضع يده عليه، وكان من حقه أن يقتله أو يسجنه أو يشغله سنين عددًا، وكان هذا مطبقاً في روما القديمة، كما كـان مطبقـاً في مكة في عهد الرسـول فقد كاد بلال أن يسترق عندما أغراه أحد المشركين بالاقتراض منه وحان الأجل وليس في يده حتى استنجد بالرسول فأعطاه ما سدد به الـدين، من أجل هـذا حـرم الإسـلام الربا وأعلن أنه حرب على الله ورسوله.

وحدد القرآن بصرامة فإن «تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ».

فيبن بهذه الآية أن على اصحاب القروض أن يأخذوا من المدين رأس المال الذي اقترضه حتى لا يُظلم المدين، ولكن الآية ذكرت بعد ذلك «وَلا تُظْلَمُونَ» بضم التاء.

وقد عجز المفسـرون عن تفسـير «تُظْلَمُـونَ» الثانية إذ لم يـروا وجهًا لأن يظلم الدائن مادام قد استوفى دينه وحدث هذا لأن الآية كـانت تـومئ إلى عهد جديد لم يكن للعرب أو البشرية عهد به وقتئذ.

ففي هذا العهـــد كانت المعاملات تتم بقطع ذهبية أو ماشـــية أو ســـلع.

كانت القيمة للأشياء والسلع تظل ثابتة، ولكن عندما استبحر العمـران وتضخمت المداولات، ظهر أن كميات الذهب المتاحة للتـداول أقل ولا تكفي ســـد حركة تـداول البيـــع والشراء فأعلنت الدولة بأنها ستطبع أوراقـاً نقدية بضـمان الحكومـة، وظهـرت الأوراق المالية بفئـات بـدءًا من جنيه حـتى مائة جنيه مختلفة الأثمـان والأجـور سـدت حاجة التعامل بحيث لم يختل ميزان التعامل ما بين البيع والشراء.

ولكن بعد فـــترة اتضح أن ما أصـــدرته الدولة من عملات ورقية أقل من أن يفي بحاجة السوق، وعندئذ تقدمت البنوك وأخذت تقـدم عملات ورقية هي الشـيكات الـتي أعطتها الدولة صفة الإبراء، بل أنها عندما توصلت إلى فكرة «الكريدت» فإنها أغـرقت السوق بالعملات.

ولكن حديث ذلك أمر يطول فإلى الحلقة المقبلة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2627)، بتاريخ 23/8/2011م.

[24]

«وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ»(*)

ــ 2 ــ

وقف بنا الحديث عند الأموال العديدة التي قدمتها البنوك قروضًا في حماية ما أطلقت عليه «الائتمان» وأغرقت الأسواق به، وشرح ذلك أمر يطول لأنه يفسر سر معاملات البلايين بعد الملايين، ويكون علينا أن نعود للوراء قرونًا فنجد أن بعض الحكام أو التجار الأغنياء يرسلون بذهبهم إلى الصاغة طلبًا للأمن وفرارًا من المصادرة أو الضرائب.. إلخ، وكان هؤلاء الصاغة من الذين يقدرون سر المهنة وقداستها بحيث نمت العملية نموًا كبيرًا شجع هؤلاء الصاغة أن يتحولوا إلى «بانكير» أي رجال بنوك، والفرق بين الرأسمالي والبانكير أن الأول يتعامل في أمواله أما البانكير فهو يتعامل بأموال غيره، تفتق ذهن هؤلاء «البانكيرات» في إصدار بطاقات كل بطاقة بخمسة جنيهات أو بعشرة جنيهات.. إلخ، وأرسلوا هذه البطاقات إلى الحكام والتجار لقاء أموالهم المودعة وعندما يريد أحد العملاء مبلغًا فإن عليه أن يرسل عددًا من البطاقات مع رسول فيعود إليه بذهبه، وبالخبرة والممارسة والتجربة ظهر أن المودعين لا يطلبون إلا جزءًا محدودًا من أموالهم، وهذا طبيعي لأنهم إنما أودعوا الأموال كنوع من التوفير وحماية المال من السرقة أو المصادرة وظهر لرجال البنوك أن ما يصرفونه لا يمثل إلا 20 % من الأموال المودعة عندهم فأخذوا يقرضونها، بل وصلت بهم الجرأة أن اعتبرت الأموال التي قدمت إليها «ودائع» يمكن تسليف أضعاف أضعافها.

ومن ناحية أخرى كان أصحاب المصانع يتوسعون في أعمالهم بعد أن أحكموا الطريقة التي تحقق لهم ربحًا وفيرًا كان في حقيقته سرقة من قيمة عمل العامل بحيث اختل التوازن ما بين العرض والطلب، ما بين الأجور والأثمان، لأن جزءًا من أجور العمال اغتصبت وأضيفت إلى الأرباح وهذه الصورة من صور التناقض مغروسة في صميم الرأسمالية، ولا يكشف عوارها إلا عند الأزمات أو حدوث أحداث غير عادية.

وتلاقت في السوق أموال لا حد لها مما تضخه البنوك والمؤسسات الصناعية والتجارية، ولكن لا يقابله عمل أو إنتاج، وكانت النتيجة هي ما يسمونه «التضخم» والاختلال ما بين عرض السلع والمنتجات وما بين الأموال التي تكفي لامتصاص هذه السلع التي تمثلها الأجور التي اختلس الرأسماليون جزءًا كبيرًا منها لأنفسهم، ولكن النقود المتاحة في السوق وهي قيمة الأجور المبخوسة نتيجة للاستغلال الرأسمالي محدودة فظهرت ظاهرة «الركود» أي زيادة العرض على الطلب أمام الأجور، وحين تطبع البنوك المزيد والمزيد من أوراق العملة وتصل هذه الأوراق إلى أيدي الناس تظهر ظاهرة التضخم أي ارتفاع الأسعار بسبب زيادة على العرض، وفي هذه الحالة لو أن شخصًا اقترض مائة جنيه لمدة ثلاث أعوام وبعدها دفعها لصاحبها لكان من حق هذا الصاحب أن يقول لقد ظلمتني فالمائة جنيه كانت تشتري منذ ثلاثة سنوات جاكت وبنطلون ولكنها الآن لا تشتري سوى جاكت وعليك أن تعطيني الفرق بحيث أستطيع أن أشتري به البنطلون.

ومعنى هذا أن الزيادة في الدين نسيئة وهي أصرح أنواع الربا تحريمًا لم يعد كذلك عندما ارتفق عليها عامل هو التضخم، وأن القرآن قد تقبل هذا عندما اعتبر أن المُقرض يكون قد ظُلم عندما أخذ رأس ماله فحسب، وهذا التفسير يختلف تمامًا عن التفسير المأثور والمشهور وإذا أخذ به فلا يكون هناك فرق ما بين بنك ربوي وآخر غير ربوي مادامت الزيادة تكون بنسبة التضخم.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2628)، بتاريخ 24/8/2011م.

[25]

«أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»(*)

في ثمان كلمات يحسم القرآن قضية الخلق والوجود، وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله يقرأ في المغرب بالطور فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه، فلما سمعته يقرأ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»، خلت أن فؤادي قد انصدع، وكان جبير حين سمع هذا لا يزال مشركًا وإنما كان قد قدم في فداء الأسارى بعد بدر، وكان الرسول نفسه يعيش هذه الأحاسيس عندما يسمع هو القرآن الكريم كما في الواقعة المشهورة عندما طلب إلى عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه سورة النساء حتى جاء إلى «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا»، فقال : حسبك، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان [أخرجه البخاري ومسلم].

وكان هذا امرًا معقولاً ومنتظرًا، فها هو القرآن بمنطقه السهل وفي الوقت نفسه القاطع كنصل حاد يسائل المشركين، وها هو الرسول يقرأ آية تنزلت للتو من السماء تسأل المشركين «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»، أي أنهم خلقوا أنفسهم بأنفسهم.

هذا هو «صوت القرآن» يكاد يكون بديهيات لا يحتاج إلى مجلدات في الفلسفة وفي الوجود.

إن اللاهوت الإسلامي يقوم على أمرين :

الأول : هو وجود الله تعالى.

الثاني : وحده الله تعالى.

أما الأولى فقد عرضتها الآية سورة النور السابعة.

أما الثانية فقد عرضها القرآن «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ»، لو كان فيها آلهة غير الله لفسدت الأرض، وفي سورة الإخلاص «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

أن الإسلام لم يكن أبدًا في حاجة إلى لاهوت، ولا علم الكلام الذي هو استنساخ لفكر يوناني، ولا دلالة فلسفية أن الإسلام جاء للناس كافة، وهو لا يفترض أنهم يسلمون بقواعد الفلسفة والمنطق وإنما يؤمن الناس بما تطمئن إليه قلوبهم، وما تنشرح به نفوسهم، وما تدركه بعقلها الفطري، وقد تلاقت فطرتهم مع الإسلام لأنه دين الفطرة.

لم يقدم الإسلام إثباتاً لوجود الله دليلاً إلا «الخلق» لأنه يعلم أن الخلق هو أوضح الدلالات وأعظم الإثباتات وإذا كان الأمر يتعلق بالسماوات والأرض وخلقهما فمن ذا الذي يقدر عليهما إلا الله.

ولكن القرآن في علمه بالناس وما يطرأ عليهم، وكيف يفكرون قد يضرب المثل بأقل شيء «ذبابة» ويتحدى أن يخلق المشركون ذبابة، بل وأن يستنقذوا ما أخذ الذباب «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

هذا هو لاهوت القرآن، إنه يسمو إلى السماوات العليا وينزل إلى ذباب الأرض ولكنه في جميع الحالات يفهم ويجعل من قصة وجود الله ووحدته أمرًا مسلمًا ولم يكن الإسلام، وهذه هي طريقته في حاجة إلى علم الكلام حيث وجود الله وكماله.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2629)، بتاريخ 25/8/2011م.

[26]

« فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ»(*)

يوجـــــــه القـرآن الكـريم خطابه للنـــــــاس جميعًـا، إنه ليس كـالطبيب الـذي لا يتعامل إلا مع المرضــى، إن القــرآن نــزل لبــني آدم «للبشــر» على اختلاف ألســنتهم ومشاربهم وأفهـامهم، وقد يوجه في بعض الحـالات حديثه لأكـابر مجرميها بما يتفق مع ما يحدثون من فسـاد، وقد يسـوق الحـديث عن «مقتصـد» وهو الـذي يـؤدي المفـروض من العبادات دون أن يزيد عليها أو عن سابق للخيرات ومنهم البحار الذي نشر قلوعه وانــدفع في البحر العميق لا يخشى عاصفة ولا يثنيه موج، القرآن يتعامل مع هؤلاء جميعًا ويخاطب كلاً بما يطيقه، كما يرسم له طريق الاستغفار والتوبة عندما يجد أنه «ظلم نفســه» بهــذه الـذنوب، والقــرآن يتقبل الجميع بما فيهم من خلط عملاً سـيئاً بعمل حســن، ويلتمســون عطـاء الله «وَمَا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّكَ مَحْظُـورًا»، منهم من يريد حـرث الـدنيا ومنهم من يريد حرث الآخرة، والله تعالى يشرق شمسه على الجميع ويُنزل غيثه على الجميع.

إن ما يمكن أن نفهمه من هذا أن وجود مستويات مختلفـة، ووجـود أشـرار وأخيـار، عــاملين ولاهين يُعد هو الوضع الــذي لابد أن يوجد في كل مجتمــع، قد تختلف النسب أو الدرجة ولكن النوعية هي هي، وما علينا أن نقــول لمن أحسن أحســنت ولمن أخطأ فاتك التوفيق.

وقد لفت انتبــاه بعض المفســرين تقــديم الــذين ظلمــوا أنفســهم، وبعــدهم يــأتي المقتصــدون، وفي النهاية يــأتي المحســنون، وفيما أرى فــإن القــرآن قـد لاحظ النسب العـــددية، ونحن عــادة نــرى أن «ظــالمي أنفســـهم» يمثلــون الأغلبية ويــأتي بعــدهم المقتصـدون وآخر من يـأتي السـابقون بـالخيرات، فـالمجتمع كهـرم قاعدته العريضة من الـذين ظلمـوا أنفسـهم يتلوها طبقة من المقتصـدين وأخـيرًا يـأتي في القمة السـابقون بالإحسان، وفيما نرى فإن القـــرآن قد قدم تصويرًا حقيقيًا للمجتمع البشـري، وتتضح كل أبعــــاد الصورة عند إبراز فكرة المقاصة، والعفو، عند التحاكم يوم القيامة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2630)، بتاريخ 26/8/2011م.

[27]

«وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»(*)

ارتبطت الأديان في الأذهان بطقوس صعبة فهي تتطلب أولاً نظافة جسدية بالماء حتى يمكن أن يمارس الصلاة التي بدورها لها شروط خاصة عديدة، أما الحج فهو قضية أخرى يغير الإنسان فيها بلده ويهجر عاداته ولا يضع على جسده إلا رداءً أبيض مجرد، وعندما يكون الصوم في الحر فإنه يجعل الألسنة جافة، وهناك بعد الإحسان إلى الجار والإنفاق من المال.

نقول إن هذه قربات إلى الله ولا يلزم هذه الأعمال أو بين يديها مشقة خاصة، وهي بعد مفيدة للصحة.

على أن الإسلام الذي يقدر ظروف الإنسان أوجد لكل من يجد صعوبة حلاً.

وقد قال الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه «أئمة الفقة التسعة» عند حديثه عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام «ويجوز التيمم للمشقة كالخوف من حدوث المرض من ماء الوضوء أو إبطاء الشفاء أو إذا غلا ثمن الماء وأصبح الحصول عليه مشقة أو إذا احتاج الإنسان إلى ثمنه في سفر أو نحوه، ويجوز للمرأة أن تتيمم بدلاً من الوضوء بالماء إذا كان الماء يؤذي جمال وجهها كأن يظهر من أثر الوضوء في الشتاء ما يشين، هذا إذا كان الوضوء يؤثر على جمال المرأة في وجهها، وأجاز لها الشافعي أن تتيمم».

بل إن من الممكن الجمع بين الصلاتين (الظهر والعصر أو المغرب والعشاء) إذا كان ذلك دفعًا للحرج أو المشقة، وروي أن الرسول فعل ذلك، فلما سئل قال «لكيلا أشق على أمتي»، وفي رواية «أراد أن لا يحرج أحدًا من أمته».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله وقف في حجة الوداع بمنى فجاء رجل فقال لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، قال إرم ولا حرج، فجاء آخر فقال لم أشعر فنحرت قبل الرمي، فقال إرم ولا حرج، فما سئل النبي عن شيء قدم أو أخر إلا قال افعل ولا حرج.

وعن أسامة بن شريك قال خرجت مع رسول الله حاجًا، فكان الناس يلقونه فمنهم من قال يا رسول الله سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئًا، أو قدمت شيئًا، فكان يقول «لا حرج إلا على رجل اقترض عرض مسلم وهو ظالم، فذلك الذي حرج وهلك».

ومعروف بالطبع عندما أخبر أحد الناس الرسول أن سعد بن معاذ يطيل الصلاة بالناس فقال له «أفتان أنت يا سعد ؟ إن هذه الصلاة يشهدها الكبير والصغير والمريض».

وأفتى الشيخ محمد زكي إبراهيم بجواز الوضوء وعلى الأصابع «المانيكير»، وأنه بنى تحليله على سلسلة من القياس.

وكيف يمكن القول أن الدين فيه حرج وآيات القرآن الكريم صادعة :

«لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا» (البقرة : 233)

«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا» (البقرة : 286)

«لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا» (الأنعام : 152)

«لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا» (الأعراف : 42)

«وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا» (المؤمنون : 62)

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2631)، بتاريخ 27/8/2011م.

[28]

«وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»(*)

لا شيء يمثل السماحة وحرية الفكر مثل الموقف من الآخر.

والموقف الإسـلامي من الآخر أجمله التعبـير المشـهور «كلامي صـواب يحتمل الخطـأ.. وكلامك خطأ يحتمل الصـواب»، وهو فيما نـرى أقصى ما تحتمله الطبيعة البشـرية في هذا السياق، ولكن القرآن الكـريم يكشف لنا عن بُعد آخر جديد هو أن من الممكن أن نكون على هدى معًا، كما أن من الممكن أن نكون معًا على ضلال.

فقد نظر القرآن نظرة إلى عناصر الاتفاق التي يغلب أن تكـون في كلام الاثـنين، فركز عليها بـدلاً من أن يركز على عناصر الخلاف، وهـذا توجيه ثمين في عـالم الفكر ولم يتنبه إليه أحد من المفسرين أو الكتاب في حين أنها إضافة منشئة.

على أن القرآن لا يكتفي بهذا، فهو يمضي في تطمين صاحبه «قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْـأَلُ عَمَّا تَعْمَلُـونَ»، ولاحظ تعبـير «أَجْرَمْنَا» الـتي يقابلها بالنسـبة للآخر «تَعْمَلُونَ» مما ينفي مظنة أي تحامل.

وأخيرًا «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ»

إن هذه الآيات من سورة سبأ تفتح آفاقاً جديدة وتقدم أدبًا وتهـذيبًا جديـدًا، ومـاذا علينا لو فتحنا آفـاق الاتفـاق فنقـرب بعضًـا من بعض بـدلاً من أن ننبش في نقـاط الاختلاف التي تباعد بيننا.

إن متنـاظرين يؤمنـان بالآيـــة لا يمكن أبـدًا أن يختلفا وما يمكن أن يصل إليه الاختلاف من عداوة وبغض، إن السلام يسري ما بين المتناظرين بفضل التنازلات التي تتضمنها، ولا تدع حاجـــة للخلاف.

فإذا كانت هذه الآيات فتحًا في عالم العلاقة بالآخرين فـإن من العجيب والمؤسف أن آخـــر الناس اسـتخدامًا لها وانتفاعًا منها هم المسـلمون الـذين نلمس في كثـير منهم ضيق الأفق وشدة التعصب، إنهم ــ باختصار ــ يعملون نقيض هذه الآيات وكـأنهم من الذين قال عنهم القرآن «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا»، وهي دليل لا يدحض على أن القرآن قد يكون في واد ويكون المسلمون في واد آخر.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2632)، بتاريخ 28/8/2011م.

[29]

«الحـق والعـدل»[*]

تـتردد هاتـان الكلمتـان بكـثرة في القـرآن الكـريم ويحتلان أعظم منزلـة، خاصة «الحق» الذي يرمز لله تعالى وهو أحد أسماء الله الحسنى ويشـار إليه باعتبـار أنه هو الله تعالى الملك.

«فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا».

«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ولم أعثر في اللغـات الأوروبية على تعبـير «الحـــــــق» بـالمعنى الإسـلامي، أي المجرد المطلق.

فـالحق هنـاك هو «حقي» أو «حقـك» أو «حق المجتمـع»، ولعل هـذا يعـود إلى الطابع المـــادي والفـــردي لهذه المجتمعــــــــات التي تدين بالرأسمالية، وأن هذا نفسه من العوامل الـتي جعلت المجتمع الأوروبي يتجاهل فكـرة «اللــه» وأحل محلها كلمة «الطبيعـة»، واعتقد أن الطبيعة ليست في حاجة إلى الحـق، أو رأى أنها وحـدها هي الله، بحيث لم يُعـد لله مجال.

أما كلمة «العدل» فإن القارئ للقرآن يخرج منها بفكرة أن العـدل هو الجـزء من الحق الذي يمكن تطبيقه لتكون قيمة مستلهمة من الحق بحيث لا يكون هناك معياران هما الحق والعدل، وإنما هو معيار واحد هو الحق، والعدل جزء منه وهو الذي يسـتخدم للفصل في الخصومات وفي الحكم وتتعدد الآيـات الـتي تقـرر الحكم بالعـدل، وبـأن لا يؤثر أي شَنَآنُ أو عثرة على العدل، ولذلك يقرن القرآن كلمة العدل بالحكم.

«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

«وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا».

فالحكم بين الفرقاء بالعدل هو وصول إلى الحقيقة.

إن الحكم بالعـدل هو المعيـار الـذي يفضل أي معيـار آخر لأن الأخذ بغـيره يعـني جعل الظلم يحيق بأحد الطرفين، فالعدل ليس هو المعيار الأمثل، بل إنه الوحيد.

---

[*] نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2633)، بتاريخ 29/8/2011م.

[30]
«الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ»(*)

كان عبد الرحمن القس واعظ البصرة شابًا في مقتبل العمر، توفرت فيه صفات التقوى والورع الفطري، واستكملهما بقراءة القرآن والتعرف على سيرة الرسول، وكان مضرب المثل بين الشيوخ والشبان حتى لقب «عبد الرحمن القس».

ابتلى عبد الرحمن بحب سلامة، وهي الأخرى جارية ملمة بأحكام الدين وآداب الشرع، وكانت الجواري اللاتي تخففن من أحكام الحجاب والنقاب وسمح لهن بلقاء الرجال يمثلن سفيرات للآداب والفنون والشعر في هذا المجتمع دون إخلال بالأحكام العامة التي لابد منها والتي هي أشبه بالإطار الفسيح الذي يحول دون ذوبان المجتمع أو تآكله أو خروج عن حدوده.

شاع حب عبد الرحمن لسلامة وعرف ذلك وألحق بمجنون ليلى وجميل بثينة، وهو حب عذري يقوم على رؤية العين أو سماع الأذن أو تلاقي الأرواح وتوافق «الجينات»، وليس له علاقة مباشرة بأي ممارسة حسية.

ويومًا ما جمعت المصادفة ما بين عبد الرحمن وسلامة وتحدثا طويلاً، وفي النهاية قالت سلامة : أحب أن أقبلك، قال وأنا أيضًا، قالت : وأن أضع شفتي على شفتيك، قال وأنا أيضًا، قالت فما يمنعك ؟ قال «الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ»، ارتجف الاثنان لسماع الآية، وتملكهما الأسى العميق من قوة عظمى ظهرت لهما، كانا قد غفلا عنها في حميا العاطفة، فلما سمعاها غلبت قوة الإيمان وهج العاطفة، فترك كل واحد صاحبه وراءه.

لم تنل المحنة من إيمان عبد الرحمن، بل صقلته وأضافت إلى علمه وإيمانه حكمة، وكشفت له عن أبعاد أخرى، وآفاق كبرى عبر عنها في قوله :

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها ... فاعجب لما تأتي به الأيام

فاليوم أعذرهم وأعلم أنما ... سبل الضلالة والهدى أقسام

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (2634)، بتاريخ 30/8/2011م.